

## مائة عام على استشهاد "نسر الثورة" روزا لوكسمبورغ- الحلقة السابعة والأخيرة

د. صالح ياسر

### تطور اتجاهات السجال بشأن العمل الأهم لروزا لوكسمبورغ:

#### "تراكم رأس المال"

ظهر "تراكم رأس المال" الى الوجود باللغة الألمانية في عام 1913، ومنذ لحظة صدوره أثار زوبعة من النقد. غير أن ذلك النقاش كان غريباً، كما أشار بصواب الى ذلك (يان جيفولسكي) **Dziewulski** قائلاً: "من جهة كان جيل النقاد قد اكتشف في تراكم رأس المال أخطاء جديدة، ومن جهة أخرى كان التطور الفعلي للرأسمالية قد أكد صواب الفكرة الأساسية لهذا العمل"<sup>1</sup>. ومن جانب آخر اتفق العديد من النقاد على أن مفهوم لوكسمبورغ كان خاطئاً وغير منسجم داخلياً، أو أن فكرته الرئيسية خاطئة، في حين أضاف آخرون أن هذا الفهم ليس ماركسياً. ويعكس السجال الذي دار حول "تراكم رأس المال" هذا الاختلاف. وسنحاول هنا تتبع المسار التاريخي لهذا السجال، بهدف استخلاص عناصره الأساسية.

#### المبحث الأول:

### نقد "تراكم رأس المال" من طرف منظري الإشتراكية الديمقراطية

#### قبل الحرب العالمية الأولى

من المعلوم أن هذا العمل صار موضوعاً للعديد من الانتقادات والمساجلات الساخنة خلال هذه الفترة. ولعل أول موجة من تلك الانتقادات جاءت من مواقع وسط ويمين الإشتراكية الديمقراطية. وقد شارك في هذه المناقشات كل من (G.Eckdstien) رئيس تحرير Vorwärts لسان حال SPD و (أوتو باور) ، على صفحات Neue Zeit و (كارل كاوتسكي) (المنظم الرئيسي لموجة النقد هذه) وغيرهم.

ولاشك أن لحظة صدور "التراكم..." مثلت نقطة انعطاف مهمة في العلاقة بين روزا لوكسمبورغ و (كارل كاوتسكي)، حيث أخذ كلاً منهما طريقه باتجاه آخر. ويبدو أن الصداقة الشخصية التي ربطتهما لفترة طويلة كانت قد انتهت، وبدأت صفحات المجلة التي كان يحررها (كاوتسكي) (اللسان النظري لـ SPD) تسد أبوابها أمام روزا، على الرغم من أنها كانت، في السابق، لا تُدعى للكتابة فيها فقط بل وللمساهمة في أعمال تحرير Neue Ziet. وانطلاقاً من تطوره نحو اليمين آنذاك، رأى (كاوتسكي) في شخص روزا لوكسمبورغ وزملائها (يان مارخليفسكي، كلارا زيتكن، ف.ميهرنغ، ف.بيك وغيرهم) بمثابة خطر كبير على الخط السياسي للاشتراكية الديمقراطية الذي كان سائداً حينذاك. غير أن (كاوتسكي) لم يشارك مباشرة وبشكل علني بنقد عمل لوكسمبورغ، بل كان يعتبر المبادر (أو على وجه الدقة،

<sup>1</sup> يان جيفولسكي، النظرية الاقتصادية لروزا لوكسمبورغ، مصدر سابق، المقدمة.

**الموجه** الرئيسي للحملة. ومن المفيد التذكير بأن (كاوتسكي) كان قد انتقد عمل مؤلفة "التراكم" ولكن بعد سنوات من موتها المأساوي.

### جوهر هذا النقد

يتمثل جوهر هذا النقد باستعارة نماذج إعادة الإنتاج الماركسية. ويمكن القول أن نقاد الإشتراكية الديمقراطية لم يناقشوا على العموم مشروعية أو عدم مشروعية المحاولة النظرية التي قامت بها روزا لوكسمبورغ، كما أنهم لم يبحثوا أهمية الأسواق بالنسبة للرأسمالية الناضجة، واتجاهات توطين رأس المال، أم السياسة الكولونيالية، كما أنهم لم يفكروا بقضية الصعوبات المتنامية التي تواجه التصريف. لقد اعتقد هؤلاء بأن هذه المشاكل غير موجودة على العموم، بل حتى أنها كانت مصطنعة من طرف روزا لوكسمبورغ. فقد ظلت خارج البحث موضوعة ماركس القائلة بأن الإنتاج الرأسمالي يهدف دائماً إلى تجاوز أطر التصريف الموجودة والبحث عن أسواق جديدة.

إن الصراع من أجل أسواق جديدة للتصريف، من أجل الاستحواذ على المواد الأولية، ومناطق توطين الإستثمارات يمكن إعتبره حقيقة، ولكنه ليس كضرورة. إذ يعد التوسع الجغرافي للبرجوازية بمثابة ذريعة لعملها وليس ضرورة. وبحسب هؤلاء النقاد فإن الضرورة الموضوعية للمرحلة الإمبريالية في الرأسمالية لا وجود لها. وطبقاً لتصور هؤلاء فإن هذه المرحلة تحولت إلى واحدة من السياسات الممكنة للطبقات المالكة.

وباستثناء أوتو باور، فقد استخدم جميع الإشتراكيين الديمقراطيين من نقاد "التراكم" تفسير مخططات ماركس ولكن تلك المصاغة من طرف (توغان بارانوفسكي)، وهو الذي بين أن إعادة الإنتاج الموسع ممكنة تماماً بمعزل عن الاستهلاك، حتى في حالة هبوطه (الاستهلاك) المطلق إلى الصفر تقريباً، شريطة أن تتم المحافظة على التناسبات، التي أشار إليها كل من (ماركس) و (بارانوفسكي)، بين قطاعي الإنتاج الإجتماعي. حتى أن (هيلفردنغ)، وفي كتابة المشهور "رأس المال المالي"، رفض الأطروحة الماركسية القائلة بأن السبب النهائي للأزمات الاقتصادية لفيض الإنتاج يتمثل في عدم كفاية استهلاك الجماهير، الناجم عن القوانين الرأسمالية لتوزيع ثمار الإنتاج الإجتماعي. وبحسب (هيلفردنغ) فإن المخططات هذه تمثل حجة (ذريعة) ضد حتمية الأزمات العامة لفيض الإنتاج<sup>2</sup>. وكما تشير روزا لوكسمبورغ، وهي على حق، فإن (هيلفردنغ) يستنسخ (ماركس) في طرحه هذا<sup>3</sup>.

ويمكن عرض فهم الإشتراكيين الديمقراطيين لهذه الإشكالية بالطريقة التالية:

أولاً - ليس هناك ، على العموم، ما يسمى بمشكلة التراكم، فكل القضايا قد تم حلها في مخططات ماركس !  
ثانياً - وحسب هذا تناول فإنه يتوجب رفض عمل روزا هذا، بإعتبره لا قيمة له أو أنه مضر أصلاً.  
ثالثاً - أن "التراكم" لا علاقة له بتفسير الإمبريالية، بل يمكن أن تكون له فائدة قبل عشرين عاماً أو أكثر من هذا التاريخ.

رابعاً - تبين مخططات ماركس مستويات الطلب إضافة إلى وجود إمكانية لحالة توازن الإقتصاد الرأسمالي.

خامساً - توجد إمكانية للتراكم اللامحدود.

<sup>2</sup> هيلفردنغ، رأس المال المالي، ص 521.

<sup>3</sup> روزا لوكسمبورغ، تراكم رأس المال، مصدر سابق، ص 645.

وفي عام 1913 أعاد (هيلفردنغ) في *Neue Zeit* تكرار ما طرحه في "الرأسمال المالي" والقائل بإمكانية أي توسيع للإنتاج، يسمح به مستوى تطور القوى المنتجة، وينتج عن مخططات ماركس أن التصريف ينمو ألياً مع نمو الإنتاج.

وكما أشارت روزا لوكسمبورغ في "النقد المضاد" فإن هذه الأفكار، وما شابهها، ذات صلة وثيقة بـ "التحريفية" *Revisionism*. لقد تصرفت النقاد هناك "ماركسيين أصوليين". فعلى سبيل المثال اتهم (Echstein) مؤلفة "تراكم رأس المال" بصياغة نظرية الكارثة، وأشار إلى "أنه وارتباطاً بالعلامم النظرية تنطرح كذلك نتائج عملية، على صعيد الممارسة، وإن نظرية الكارثة *Catastrophe* التي تبنتها الرفيقة لوكسمبورغ تستند إلى نظريتها القاضية بضرورة المستهلكين غير الرأسماليين"<sup>4</sup>.

لقد سعت نماذج إعادة الإنتاج الموسع الماركسية للبرهنة على عدم ضرورة "نظرية الكارثة"، أي إمكانية التطور الارتقائي للرأسمالية وتحولها التدريجي للاشتراكية. ولتبرير أفق كهذا كانت هناك ضرورة لنظرية تبرهن على ثبات الرأسمالية، ورفض أية إمكانية للانهايار *Crash*. وكما بين (هيلفردنغ *Hilferding*) في عام 1927، وكان حينذاك وزير المالية في جمهورية فايمر، بأن الاشتراكية الديمقراطية رفضت دوماً نظرية الانهايار.

لقد غير (كارل كاوتسكي) أفكاره بصدد قضية الانهايار، وعدم إمكانية التطور المتناغم وغير المحدود للرأسمالية. وكما معروف فقد ساجل كاوتسكي بحرارة مع نظرية (توغان – بارانوفسكي)، في حين تحول، في السنوات التالية، إلى مواقع هذه النظرية. وفي كتابه "الفهم المادي للتاريخ"، توقف (كاوتسكي) أمام نظرية التراكم التي صاغتها روزا لوكسمبورغ حيث كتب قائلاً "مباشرة قبل الحرب ظهرت نظرية جديدة سعت للتأكيد بأن الرأسمالية تاهت في منعطف لا يمكن الخروج منه، وأنه وبمساعدة الاشتراكية فقط يمكن الخروج من الرأسمالية وتحقيق القدرة على التقدم اللاحق". وبعد اقتباس مقاطع عديدة من أعمال مؤلفة "التراكم" أكد (كاوتسكي) على ما يلي: "نحن هنا أمام فرضية تسعى لاستخلاص المصير النهائي للرأسمالية من شروط ظروف عملية التوزيع... واعتبار هذه الحقيقة ضرورة لا بد منها، بالصد من ماركس الذي بين، في الجزء الثاني (الكتاب الثاني) من الرأسمال شيئاً مغايراً لذلك"<sup>5</sup>.

أما تقيّم (أوتو باور) فيختلف عن النقاد السابقين. إنه يعتقد بأن مخططات ماركس ليست خالية من التناقضات. و نراه لا يوافق فقط على الاتهام الرئيسي الموجهة لـ "التراكم" بل يذهب للاعتقاد بأن بأنها، أي لوكسمبورغ، لم تكتشف فقط واحدة من خصائص الإمبريالية، بل اكتشفت واحدة من أهم جذورها. يعرض (باور) جوهر مخططات ماركس معتبراً إياها لوحة مبسطة لحركة الإنتاج المستخدم للسكان المتزايد، وبعاقده فإنه يمكن البرهنة بأنه وارتباطاً بالإنتاج تتزايد كذلك القدرة الاستهلاكية<sup>6</sup>. يبين (باور) بأن التقدم التقني يستحث نمواً ثابتاً (دائماً) للأجور (عنده الأجور الحقيقية). غير أنه ولأمر مفهوم فإن التقدم هذا، في الرأسمالية، يجب أن يكون أساساً لنمو الربح، وإذا كان استخدامه يشير إلى عدم ريعيته فإنه لن يكون هناك مكان له.

وكمدخل لنقده لروزا لوكسمبورغ، صاغ (أوتو باور) مخططاته التي بدت كما لو أنها خالية من علامم ماركس "غير الواقعية"، حيث خلت تلك النماذج من التقدم التقني. وبالنسبة له لا توجد مشكلة للتراكم، حيث أنه "من وجهة نظر الرأسمالي كفرد لا توجد أية مشكلة حقا". ولا بأس من التذكير كذلك بأن (جورج لوكاش) كان قد لاحظ بأن الإنجاز الأكبر لروزا لوكسمبورغ يكمن في تناول الشامل لإشكالية

<sup>4</sup> مقتبس عن المصدر السابق، ص 731.

<sup>5</sup> كارل كاوتسكي، الفهم المادي للتاريخ: المجلد الثاني، الجزء الثاني، وارشو 1963، ص 81، 82 (باللغة البولندية).

<sup>6</sup> قارن أوتو باور، تقييم "تراكم رأس المال" " *Neue Zeit* العدد 1913/24، ص 873.

التراكم، وبالنتيجة فإن ذلك كان يعني تناول الإمبريالية، والحرب العالمية، والثورة كنتائج حتمية لتطور الرأسمالية<sup>7</sup>.

ولتلخيص هذا الجزء من المساجلات نستطيع القول بأنه وبعد صدور "تراكم رأس المال" لوحظ انطلاق موجة نقد صارم لهذا العمل، معظمها انطلق من مبررات سياسية وليس لاعتبارات علمية. ولم يكن نقد (برنشتاين)، و (باور)، و (كاوتسكي) وآخرين نقداً محايداً وموضوعياً بل كان هدفه الأساسي إقصاء "روزا الحمراء الخطرة" كمنظرة، وتدمير مكانتها وهبتها بإيصالها إلى الحضيض، كقائدة للجناح اليساري في الإشتراكية الديمقراطية حينذاك.

## المبحث الثاني:

### تقييم "التراكم" من طرف الماركسيين في سنوات العشرينات من القرن العشرين

حضي كتاب "التراكم" بتقويمات متعددة من طرف الماركسيين الثوريين. وكانت هذه التقويمات، على العموم، حيوية وودية. وفي مقالتهما المنشورة في *Leipziger Volkszeitung* في عام 1913 عبر (ف. ميهرنك F. Mehring) و (يوليان مارخليفسكي J. Marchlewski) عن تضامنهم التام مع الموضوعات الأساسية لـ "التراكم". وإضافة لذلك لم يتضامن (جورج لوكاش Lukacs)، مع هذا العمل فحسب بل رأى فيه انبعاث جديد للماركسية، بعد سنوات عديدة من ابتذالها، حسب قوله. ونفس الأمر بالنسبة للكاتب السوفيت في سنوات العشرينات، الذين تعاملوا، وبروح انتقادية وعادلة، بتعاطف ملحوظ مع "التراكم". فقد أشار (موتيلوف G. Motylow)، في مقدمة الطبعة الروسية لهذا الكتاب، إلى ما يلي: "في مقالتيّ الاثنتين اللتين كتبتنهما في سنتي 1923، 1924، بيّنت أن نقد أخطائها (أخطاء روزا لوكسمبورغ - ص. بي) كان قاصراً وعمومياً. وفي مقدمة الطبعة الرابعة للتراكم (المنشورة في عام 1929)، ارتكبت كذلك أخطاء محددة في نقد اللوكسمبورغية *Lukseburgizm*"<sup>8</sup>. وكما نلاحظ أعلاه، فإن (موتيلوف) ينتقد نفسه لأنه لم يعتبر في حينه عمل روزا لوكسمبورغ عملاً خاطئاً من ألفه إلى يائه!

من المفيد الإشارة إلى أن المشاعر المليئة بالتعاطف التام مع روزا لوكسمبورغ وأعمالها قد تشكلت، في سنوات العشرينات، نتيجة لموقفها البطولي في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، إضافة إلى موتها الإستشهادي. كما أثرت كذلك على نتيجة هذا الموقف المقالة المنشورة في *البرافدا* في 18/أبريل/؟ تحت عنوان "ملاحظات محرر" بقلم (لينين)<sup>9</sup>. وبالرغم من إشارته إلى العديد من أخطاء روزا لوكسمبورغ، فقد قيم قائد البلاشفة عالياً في الوقت نفسه النشاط الثوري لـ "نسر الثورة"، مبيناً أن روزا

<sup>7</sup> في عام 1921 برهن جورج لوكاش على أن مقولة "الكل" تلعب دوراً جوهرياً في الأبحاث المجراة على المجتمعات الرأسمالية. وقد ظهرت هذه الأطروحة ارتباطاً بـ "تراكم رأس المال" لروزا لوكسمبورغ. ومثل هذه الخصوصية ليست بدون أهمية، ذلك لأن عمل لوكسمبورغ هذا كان يُعد، في الأدب الماركسي حينذاك، بمثابة واحدة من أولى المحاولات لتناول تراكم رأس المال من وجهة نظر الإقتصاد العالمي. وبهذه الطريقة وارتباطاً بـ "تراكم رأس المال" ظهرت قضية جديدة، في النظرية الماركسية، والمقصود بها قضية الاعتماد المتبادل والتفاعلات بين مختلف أنماط الإنتاج في إطار النسق العالمي. أخذين بالاعتبار هذه الملاحظة، يمكن اعتبار عمل لوكاش هذا بمثابة محاولة لتعليق منهجي إلى عملية التراكم الرأسمالي التي حللتها روزا لوكسمبورغ. ويتعلق الأمر أولاً وقبل كل شيء بمفهوم "الكل كموضوع ملائم"، ومن خلال ذلك بمشكلة (قضية) الكل البحثي. لمزيد من التفاصيل قارن: جورج لوكاش، *التاريخ والوعي الطبقي*، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1979.

وبحسب روزا لوكسمبورغ فإن الاعتماد المتبادل، في إطار النسق العالمي، وفي إطار القطاع الرأسمالي والوسط غير الرأسمالي يؤثر بدرجة مفرقة حول إمكانيات إعادة الإنتاج الموسع لرأس المال. في "النقد المضاد"، المتضمن سجلها مع أوتو باور Otto Bauer أكدت على أن التراكم ليس فقط علاقة داخلية بين فروع الإقتصاد الرأسمالي، بل هو، وقبل كل شيء، علاقة بين الرأسمال والوسط غير الرأسمالي. وقد أعطى لوكاش لهذه الأطروحة نقلاً منهجياً، عندما أدخل مفهوم "الكل". لقد عرف هذا المفهوم "الكل" من أجل أن يتضمن ليس فقط مقولة "المجتمع المفترض المؤلف فقط من عمال ورأسماليين"، ولكن كذلك مفهوم "المجتمع ككل".

<sup>8</sup> ورد الاقتباس عند هنريك شلايفر. أنظر: هنريك شلايفر، *تحديث التبعية: الرأسمالية والتطور في أمريكا اللاتينية*. أكاديمية العلوم البولندية، وارشو 1985 (باللغة البولندية).

<sup>9</sup> ف.أ. لينين، *الأعمال الكاملة*، المجلد 33، ص 212 (باللغة البولندية).

رفضت " تجاوز " العديد من صياغاتها، غير أنه دعا، برغم ذلك، الى نشر نبذة عن تاريخ حياتها وكل أعمالها ( بما في ذلك " التراكم " )، لما لذلك من مكانة مفيدة جداً في تربية أجيال عديدة من شيوعي كل العالم.

من المعلوم أن (لينين) أشار الى أخطاء روزا لوكسمبورغ، وأعتبر نظرية التراكم المصاغة من طرفها عملاً خاطئاً. كما أنه اعتبر " التراكم " بمثابة إضافة خاطئة لنظرية ماركس<sup>10</sup>. وبرغم ذلك فقد تصرف لينين ودياً تجاهها معتبراً أياها رفيقة كفاح في نفس الخندق الثوري. ومنعاً لأي التباس لا بد من التنويه بأن الموقف الإنتقادي للينين تجاه " التراكم " لم يكن معروفاً في البداية، إذ أنه لم ينشر سوى في نهاية العشرينات.

ومن جانب آخر، أراد (لينين) كتابة مقال انتقادي عن " التراكم " ، غير أن ذلك لم يحصل للأسف، فقد ظل مخطئاً لهذا المقال، ولديه العديد من الملاحظات السلبية على هذا الكتاب. وكان يعتقد بأنه لا معنى لموضوعه روزا لوكسمبورغ القائلة بأن نمو رأس المال الثابت على حساب رأس المال المتغير هو فقط بمثابة تعبير رأسمالي للنمو العام لإنتاجية العمل، بغض النظر عن التشكيلة الإجتماعية التي يحدث فيها هذا النمو. كما كان يعارض التفكير المبسط، والمتعلق بالسنن العامة الناشطة كذلك في النظام الرأسمالي. واعتراض (لينين) هذا استحث، كاحتمال، رغبة روزا لوكسمبورغ لتحديد المشكلات العامة، المجردة، على حساب سنن النظام الملموس. ولم يشاطر (لينين) الموقف الذي اتخذته لوكسمبورغ في سجلها مع ماركس. إنه يلاحظ، على سبيل المثال، عدم صواب أطروحة روزا التي تبين كما لو أن ماركس أهمل التقدم التقني. لقد اعتبر لينين أن حجة ماركس المستعارة من طرف مؤلفة " التراكم " صحيحة، في حين اعتبر تأويلاتها لهذه الحجة خاطئة، وغير مبررة.

كما توقف (لينين) عند موضوعه لوكسمبورغ القائلة بأن الرأسمالية، ومن أجل تحقيق فائض القيمة، تحتاج الى وسط غير رأسمالي من المستهلكين، وعلق على هذه الموضوعه باختصار قائلاً بأنها لا معنى لها Nonsense . وبحسب (لينين)، فإن جذر التناول الخاطي للمشكلة يتمثل بموضوعات الكاتبة القائلة بأن " تراكم رأس المال غير ممكن، إذا افترضنا فقط الهيمنة المطلقة لأسلوب الإنتاج الرأسمالي، أي حتى بدون الوسط غير الرأسمالي، وهو أمر لا يمكن تصوره " <sup>11</sup>.

يزعم Nettl<sup>12</sup> الكاتب الإنكليزي لسيرة حياة روزا لوكسمبورغ، بأن لينين قرأ " التراكم " في مرحلة كانت تسود فيها علاقات سياسية غير جيدة بينه وبين روزا لوكسمبورغ. وكان ذلك في فترة محددة حيث شنت روزا لوكسمبورغ، ومن على منبر الأهمية الثانية، هجوماً قوياً على النشاط " الانشقاقى " للبالاشفة، واحتضنت أولئك النشاط من الإشتراكية الديمقراطية الروسية، الذين سعوا الى توحيد الحزب على أساس إجراء مساومة **Compromise** بين الأجنحة المختلفة. غير أنه يتعين رفض هذا التبرير المقدم من طرف Nettl. فمن المعروف عن لينين أنه رجل مبدئي، وبالتالي فإن هذه المواقف الطارئة لا تؤثر على تقييمه الأساسي للعمل المذكور، وقد عبر عن موقفه هذا مرات عديدة.

بيد أن النقد اللينيني لـ " التراكم " كان ناجماً عن أن " نظرية التراكم اللوكسمبورغية ليس لأنها لم تتمكن من تفسير الجوهر الإقتصادي للإمبريالية، بل أنها وجهت الانتباه نحو طريق غير صحيحة ". ويبدو أن نقد لينين للتناول اللوكسمبرغي لإشكالية الإمبريالية كان ذا أهمية نظرية وسياسية كبيرة في ذلك الوقت. وبحسب روزا لوكسمبورغ فإن تحقيق إعادة الإنتاج الموسع يتأمن فقط من خلال الإبقاء على وسط غير رأسمالي، أي وجود " طرف ثالث ". ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن انهيار الرأسمالية ممكن

<sup>10</sup> ف.أ.لينين، الأعمال الكاملة، المجلد 21، ص 82 (باللغة البولندية).

<sup>11</sup> انظر: ف.أ.لينين، الأعمال الكاملة، المجلد 22، ص 390 (باللغة البولندية).

<sup>12</sup> Nettl P. *Rosa Luxemborg*, t I & II, London 1966.

ليس فقط من خلال التناقضات الداخلية النازمة لها، بل عن طريق اختفاء الأشكال غير الرأسمالية للاقتصاد. لقد استخلص بعض أنصار روزا لوكسمبورغ من نظريتها هذه استنتاجا يقوم على فكرة أن سقوط الرأسمالية يمكن أن يحدث أليا (أوتوماتيكياً) كنتيجة لاختفاء الأشكال غير الرأسمالية، وليس نتيجة لكفاح الطبقة العاملة، الساعية، بوعي، للإطاحة بالرأسمالية. وعلى هذا تستند النظرية المعادية للبروليتاريا على الانهيار الآلي للرأسمالية. غير أنه يتعين التأكيد، على الدوام، على حقيقة أن هذه الثورية المتألفة، روزا لوكسمبورغ، لم تستخلص أبداً مثل هذه الاستنتاجات.

ليس هناك، إذن، من غرابة بأن لا يعثر المرء، في **مخطط مقالة لينين**، على ما يدل حول **نظرية الانهيار الآلي** (الذاتي) للرأسمالية، التي يشار الى أنها مصاغة من طرف روزا لوكسمبورغ، ولا حول مفاهيمها الإقتصادية ونصف المنشفية " وكما نعرف فإن لينين، حتى وبعد قراءته لـ " التراكم " اعتبر روزا بمثابة ممثلة كبيرة للبروليتاريا وللماركسية الأصلية، وقائدة سياسية لامعة<sup>13</sup>.

غير أن الأمور عادت وساءت مجدداً في عام 1931، حين هاجم (ستالين)، شخصياً، ومن بعده (لازار كاغانوفيتش)، روزا لوكسمبورغ علناً. حيث عمد (ستالين) الى " فبركة " خلطة بين (تروتسكي) و (روزا لوكسمبرغ) و (بارفوس)، واتهم الثلاثة بخطيئة " الثورة الدائمة ". ومن منفاه في المكسيك، عمد (تروتسكي) الى انتقاد مقالة ستالين وإعتبرها " كذبة مشينة ومخجلة في حق روزا لوكسمبرغ ". ولكنه وفي مقال لاحق عمد الى مهاجمة اللوكسمبرغية دون أن يهاجم روزا لوكسمبرغ.

## الإمبريالية وتراكم رأس المال لبوخارين

لعل أوسع وأشمل نقد لكتاب روزا لوكسمبورغ " تراكم رأس المال " خلال هذه الفترة يمكن العثور عليه في كتاب (نيكولاي بوخارين) الموسوم: " الإمبريالية وتراكم رأس المال " الصادر في عام 1926 في كل من فيينا وبرلين. مثل هذا الكتاب سلسلة من الأعمال، المنشورة في البداية في المجلة النظرية السوفيتية Pod znamien marksizmu في موسكو في السنوات 25، 26، ويعد أيضاً من الذين ساهموا مساهمة متميزة في إثراء الحوار والجدل حول الامبريالية. وأثناء فترة نشر هذه الأعمال كان (بوخارين) رئيساً للأمية الشيوعية وعضواً في المكتب السياسي لحزب البلاشفة (WKP (b)، ومن هنا فإن نقده لروزا لوكسمبورغ لا يمثل تعبيراً عن أفكاره لوحده فقط. إذ مباشرة وبعد نشر كتابه هذا (وليس فقط ارتباطاً به) اعتبر (بوخارين) قائداً للمعارضة "اليمينية" في الاتحاد السوفياتي، وبعد 12 عاماً (أي في عام 1938) حكم عليه بالإعدام وأعدم جراء " جرائمه ضد المكتب السياسي ". وخلال الفترة التي ظهر فيها كتاب " الإمبريالية وتراكم رأس المال "، اعتبرت أفكار بوخارين بمثابة مظهر أو تعبير عن الجناح اليميني في الحركة العمالية.

بحسب بوخارين، لا تمثل الامبريالية بداية النهاية بالنسبة الى الرأسمالية، مثلما ذهب الى ذلك منظرون آخرون، بل بداية تجديد الرأسمالية لنفسها. وتكمن أهمية عمل بوخارين هذا، بصورة اساسية، في كونه قام بتفحص الحقائق الاساسية للاقتصاد العالمي المتعلقة بالامبريالية ككل، وكمرحلة محددة في نمو الرأسمالية الأعلى تطوراً. ولاشك أن النقد الذي قام به (بوخارين) تضمن العديد من الاتهامات المشروعة. ففي هذا المجال تساجل بوخارين مع روزا لوكسمبورغ في قضية التحقيق الضروري للجزء المتراكم من فائض

<sup>13</sup> قارن : لينين، الأعمال الكاملة، المجلد 31، ص 42 (باللغة البولندية).

القيمة من طرف الوسط غير الرأسمالي، الذي اعتبرته المؤلفه بمثابة سبب رئيسي للإمبريالية<sup>14</sup>. وفي إطار ذلك يستبدل (بوخارين) مختلف المخططات بمخططات رياضية **Arthmetic**، حيث للأولى منطقتها الذي يجذب معه أحياناً تعقيدات غير ناجمة عن جوهر الشيء ذاته<sup>15</sup>.

تمثل **الصيغة العامة** لمخططات إعادة الإنتاج الماركسية **نقطة الانطلاق** لبوخارين، حيث:

$$c1+v1+m1 = \text{إنتاج وسائل الإنتاج}$$

$$c2+v2+m2 = \text{إنتاج وسائل الإستهلاك}$$

وفيما بعد يقسم بوخارين  $m1$  الى الجزء المستهلك  $mk1$  و  $ma1$  الجزء المتراكم من فائض القيمة. كما يقسم  $ma1$  الى  $mac1$  (المخصص لتوسيع قيمة وسائل إنتاج القطاع |) و  $mav1$  (المخصص لزيادة عدد المشتغلين في القطاع |). وإضافة لذلك يجري (بوخارين) نفس هذه العملية في القطاع الثاني ويحصل على معادلة للإنتاج الموسع بالصيغة العامة التالية :

$$v1+mk1+mav1=c2+mac2$$

إنتاج القطاع الأول =  $c1+v1+m1 = c1+mac1+c2+mac2$

إنتاج القطاع || =  $c2+v2+m2 = v1+mk1+mav1+mav1+v2+mk2+mav2$

تعني هذه المعادلات أن **القطاع |** يجهز وسائل الإنتاج لتعويض رأس المال الثابت المستعمل في القطاعين وكذلك لتوسيع رأس المال هذا في كلا القطاعين، في حين أن القطاع || يقدم وسائل الإستهلاك الضرورية لتشغيل عمال إضافيين في هذين القطاعين.

من أين يستخلص (بوخارين) هذا الاستنتاج؟ إن **الصيغ الرياضية** المطروحة من طرفه هنا تخفي الفروقات بين حجم  $c$  و  $m$  في كلا القطاعين، وتخفي الفروقات بين الجزء المتراكم والجزء المستهلك من فائض القيمة في كلا القطاعين، كما تزيل الفروقات في التركيب العضوي لرأس المال في كلا القطاعين II،I. في تناول بوخارين هذا "تختفي" المشكلة التي يوضحها (ماركس)، حيث يحدث التداول ما بين القطاعات، ولا تظل أي بقايا تستلزم التحقيق. وباختصار يمكن القول، وببسيطة بالغ، أن قضية إعادة الإنتاج الموسع يتم حلها على الورق، بدون أية تعقيدات!

وبعد عرض فكرة روزا لوكسمبورغ القائلة بأن الرأسماليين، في المخططات الماركسية، يظهرون كـ "أصوليين **Fanatic**" للإنتاج من أجل الإنتاج، يتساءل (بوخارين) قائلاً: "هل يجب عموماً طرح القضية من وجهة نظر هدف كل الطبقة (وهنا الهدف الذاتي)؟"<sup>16</sup>.

ومن وجهة نظر هذا المفكر فإن مجرد التفكير بحد ذاته، بقضية الهدف، يعتبر خاطئاً، ويعني ذلك تخلي روزا لوكسمبورغ عن منهجية البحث الماركسية. ويبدو أن (بوخارين) ليس على حق هنا. فمن المعلوم أن مؤلفة "التراكم" كانت تشير، على العموم، الى أن هدف الإنتاج الرأسمالي هو تعظيم الربح. وفي واقع الحال فإنه بنتيجة هذا الهدف هناك **إنفصال** مؤقت بين الإنتاج والإستهلاك، وفي إطار ذلك لا ترتكب روزا أي خطأ منهجي. وفي ذات الوقت لا نراها ترتكب أي خطأ عندما تشير الى أن هدف الإنتاج الاشتراكي هو **الرفع** الدائم لرفاه المجتمع. إن الإقرار بمحدد السيرورات الإجتماعية لا يلغي حقيقة أن

<sup>14</sup> قارن نيقولاوي بوخارين، *الإمبريالية وتراكم رأس المال*، ص 15 (باللغة البولندية)، وسنشير الى ذلك لاحقاً بـ "الإمبريالية". وهناك ترجمة للكتاب باللغة العربية بعنوان: *الإمبريالية والاقتصاد العالمي*. ترجمة رجاء أحمد، مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، الطبعة الاولى، دمشق 1990.

<sup>15</sup> قارن: نيقولاوي بوخارين، *الإمبريالية*.....، مصدر سابق، ص 15.

<sup>16</sup> نيقولاوي بوخارين، *الإمبريالية*.....، مصدر سابق، ص 17.

الناس وعموم الطبقة لا يطرحون على أنفسهم أهدافاً فقط، بل المطلوب تفسير المحددات الإجتماعية للأهداف تلك.

أكد (بوخارين) على أنه إذا كانت روزا لوكسمبورغ قد لاحظت بأن استهلاك الطبقتين ينمو ارتباطاً بالإنتاج، فإنها ومن خلال هذا الطرح تكون قد أجابت على السؤال المعروف: **لمن يحدث الاستهلاك؟** وبدون شك يتضمن هذا التأكيد جزءاً من الحقيقة. غير أنه وبتأكيد هذا، لا يعني أن (بوخارين) لم يطمح، على الأقل، الى **الإطاحة** بحجة روزا لوكسمبورغ، إذ لم يبرهن أحد أبداً على أن الاستهلاك المتزايد **يتمص** عموم الزيادة في الإنتاج. واستناداً الى الاستهلاك المتنامي لمختلف الطبقات، لا نستطيع أن **نحل** المشكلات المطروحة من طرف الكاتبة. وهنا لا بد من الإشارة الى أن **التناقض** بين الإنتاج والاستهلاك، بين العرض والطلب، يرافق الرأسمالية في مختلف مراحل تطورها، ولا يعارض إمكانية التطور ذاتها. يمكننا أن **نفترض** بأنه لو ظهرت يوماً رأسمالية صافية ( والتي نعتقد أنها غير ممكنة)، فإن هذا **التناقض** سيظهر بصيغة أكثر حدة. ويمكن القول بأن حتى مجرد الاقتراب، بحد ذاته، من مثل هكذا رأسمالية صافية، أي رأسمالية رقيقة التطور، **يكشف** التعميق الملحوظ لصعوبة التصريف.

**ينتقد** (بوخارين) أطروحة روزا لوكسمبورغ القائلة بأنه " طالما يظهر الاستهلاك ويتنامى لا يحدث أي تراكم"، كما أنه يذكر بأن نمو الاستهلاك كظاهرة مستديمة وغير مقطوعة لا يمكن، على العموم، أن يكون له مكان بدون التراكم<sup>17</sup>. وإضافة لذلك فإنه لمشروع أيضا **نقد** (بوخارين) لروزا للكاتبة عندما **رفض** أطروحتها القائلة بأن تجاوز الاستهلاك المتنامي للطبقة العاملة يتعارض مع التراكم. ففي العالم الرأسمالي ينمو استهلاك هذه الطبقة ولكن مع إنقطاعات مشروطة، غير أنه وعلى المدى البعيد وبرغم ذلك ( بل وبسبب ذلك) تنمو مستويات الاستهلاك بشكل مطلق. ونفس الأمر يشمل طبقة الرأسماليين. **وباختصار**، يمكن القول أن استهلاك الطبقتين ينمو بوتائر متفاوتة، ولكن بمقابل ذلك ينمو التراكم أيضاً.

ومن جهة أخرى، **يتناول** (بوخارين) **نظرية** انهيار الرأسمالية التي طرحتها روزا لوكسمبورغ. غير أنه لا يلحظ في عملها ما يشير الى بنائها نظرية للانهايار الآلي الذاتي ولا كذلك مفهوم بديل للاشتراكية. وحسب (بوخارين) فإن قراء "تراكم رأس المال" يستخلصون من نظرية مؤلفته " خطأ واضحاً للحدود الإقتصادية للرأسمالية، وقد قدمت العديد من البراهين لتأكيد ذلك " <sup>18</sup>. غير أن (بوخارين) يؤكد على أنه بإمكانه أن يستنتج من نظرية روزا شيئاً معكوساً - مجرى سلمى دائم لعملية إعادة الإنتاج الموسع **كعلاقة** بين العالم الرأسمالي وغير الرأسمالي. ولكن يبدو أن (بوخارين) يبرهن هنا على قوة منطقها.

لقد **شاطر** (بوخارين) أفكار روزا لوكسمبورغ بوجود حد موضوعي للرأسمالية، وبعد تجاوزه يحدث الانتقال الى الكوارث، لكنه **يعتقد** بأنها تقف أمام درجة محددة لاحتماد تناقضات الرأسمالية، وتثبت عند وحدة للعلام الموضوعية والذاتية. كما أنه يعود أيضاً الى العديد من فضائل روزا لوكسمبورغ، حيث **يوكد** هنا على أنها طرحت وبصواب قضية العلاقات بين العالم الرأسمالي المتقدم و البلدان ضعيفة التطور، رغم أنه لا **يتفق** مع محاولتها لحل هذه الاشكالية. وحسب اعتقاد (بوخارين)، تنبأت لوكسمبورغ، وبصواب، بالحرب العالمية، وأشارت وهي على حق، الى الطابع الإمبريالي لهذه الحرب. كما لا يقلل (بوخارين) من عرضها لإشكالية إعادة الإنتاج الموسع. وعند مقارنة "تراكم رأس المال" مع ما أنجزه " الإصلاحيون والكاوتسكيون"، أكد (بوخارين) بأن عمل روزا لوكسمبورغ هذا يتفوق على كل أعمال هؤلاء، وأنه يمثل محاولة نظرية جريئة من طرفها، إنه عمل نظري رائع<sup>19</sup>.

<sup>17</sup> روزا لوكسمبورغ، **التراكم**، مصدر سبق ذكره، ص 18.

<sup>18</sup> نيقولاوي بوخارين، **الإمبريالية وتراكم رأس المال**، مصدر سبق ذكره، ص 115.

<sup>19</sup> المصدر السابق، ص 124.



ومن جهة أخرى أثار (بوخارين) الانتباه الى الوحدة المتينة بين النظرية والممارسة في نشاط روزا لوكسمبورغ، وكتب هنا قائلاً: "إذا كانت (روزا لوكسمبورغ - ص.بي) قد برهنت، في النظرية، على الأطروحة الأساسية حول ضرورة الإمبريالية وانهايار الرأسمالية، فإنها طرحت، في الممارسة، مطلباً يتمثل في أن إسقاط الإمبريالية يتطلب إسقاط الرأسمالية " 20.

وباختصار شديد، يمكن القول أن (بوخارين) أثار العديد من اللحظات الجديدة لفهم "التراكم"، ومن بينها ما يلي:

- بين أهمية الاستهلاك المتنامي بشكل مطلق لقضية التحقيق والتراكم.
- اعتراف روزا لوكسمبورغ بأن مخططات (توجان - بارانوفسكي) تمثل "تفسيراً مخلصاً لمفهوم ماركس"، وتتفق في هذه القضية مع (هيلفردنغ). غير أنها رفضت التخفيضات في مستويات التجريد. في الواقع كان يتوجب رفض التفسير البارونوفسكي لمخططات ماركس وليس المخططات ذاتها.
- رغم أن نمو استهلاك الطبقة العاملة لا يمثل هدفاً للرأسمالية، فإن مثل هذا النمو يحدث رغم ذلك، وإذا كان نتاجاً لنمو عدد المشتغلين، فإنه ذا مغزى عميق، لأنه يخدم مضاعفة فائض القيمة، أي يخدم في نهاية المطاف الربح الذي ينتزعه الرأسمالي.
- اعتقدت روزا لوكسمبورغ إن نمو وسائل الإنتاج من أجل توسيع إنتاج وسائل الاستهلاك ليس بدون معنى، إنه خاصية مهمة للرأسمالية، توضح سعي الرأسماليين للإثراء الدائم.
- لم تتم البرهنة على أطروحة روزا لوكسمبورغ القائلة بأن الاتجاه نحو الركود أو أزمة دائمة لفيض الإنتاج يتنامى بمقدار الاقتراب الى "الرأسمالية الصافية".
- شاطر (بوخارين) رأي مؤلفة "التراكم" القائل بأن بحث الوسط غير الرأسمالي - على الأخص البلدان ضعيفة التطور - يمثل قضية هامة بالنسبة للماركسيين، ويتطلب مدخلاً أكثر ملموسية من المدخل المصاغ في (رأسمال) كارل ماركس بسبب اختلاف الظروف.
- يتفق (بوخارين) كذلك مع ضرورة الكشف عن الحدود الموضوعية للرأسمالية، كما أنه أقر بالطابع الثوري لـ "التراكم"، رغم كل أخطاء هذا العمل، حسب اعتقاده.

### المبحث الثالث:

#### نقد "التراكم" منذ سنوات الثلاثينات

#### حتى النصف الأول من الخمسينات من القرن العشرين

بداية، لا بد من الإشارة الى أن ما حدد طابع النقد في السنوات المذكورة أعلاه، الى حد كبير، هو رسالة (جوزيف ستالين) الى هيئة تحرير مجلة "الثورة البروليتارية". وليس في ذلك الأمر غرابة، خاصة إذا ما عرفنا حجم السطوة الهائلة التي كان يتمتع بها (ستالين) آنذاك، ليس في حقل السياسة ولكن أيضاً في النظرية وإن من دون حق. يبدو أن النقد الستاليني لموقف روزا لوكسمبورغ، في القضايا السياسية والنظرية (ولكن ليس في قضية التراكم وإمكانية أو عدم إمكانية الرأسمالية الصافية، فهذه القضية لم يثرها ستالين)، كان ذا طابع شمولي **Totally**. فقد قدمت روزا لوكسمبورغ هنا وكأنها "نصف منشفية"، مؤلفة الكاريكاتورا الماركسية لنظرية الثورة، منشفية في القضايا التنظيمية"، وما شابه ذلك من النوع.

لقد اعتبر العديد من المنظرين " المحترفين " النقد أعلاه بمثابة " مرشد " لهم. وكانت مقدمة الطبعة الروسية لـ "تراكم رأس المال" التي كتبها البروفيسور (موتيلوف Motylof) بمثابة توضيح للاتجاه الجديد للنقد الموجه لروزا لوكسمبورغ. فقد كتب (موتيلوف): " من المحتمل أنه لا يمكن ذكر عمل آخر، في الأدب الماركسي، يمكن تمييزه بعدم التوافق بين التطلعات الذاتية للمؤلفة وبين المعنى غير الثوري لموضوعاته الرئيسية. لقد تسبب تراكم رأس المال، بشكل غريب، في تقسيم المؤيدين والنقاد. فبمواجهة نظرية التراكم لروزا لوكسمبورغ تقدم، من جهة، المنظرون الرسميون للاشتراكية الإصلاحية، والمنظرون الشيوعيون من جهة ثانية " <sup>21</sup>. ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن الموقف الانتقادي الذي اتخذته البروفيسور (موتيلوف) لا يمكن تعميمه على جميع الشيوعيين. فعلى سبيل المثال لا الحصر اتخذ كل من (ف. ميهرنغ)، (يوليان مارخليفسكي) موقفاً إيجابياً جداً تجاه "التراكم".

يؤكد (موتيلوف) أن الشيوعيين ينتقدون هذا العمل "التراكم" ليس فقط بسبب التطلعات الثورية لروزا لوكسمبورغ، ولكن كذلك بسبب اللاثورية الموضوعية - حسب وصفه - للأفكار الأساسية للعمل. ينطرح، إذن، السؤال التالي: إذا كان العمل يتضمن كل هذه العيوب فلماذا ساهم (موتيلوف) في إصدار الطبعة الروسية لكتاب روزا لوكسمبورغ هذا؟

وبعد أن عرض (موتيلوف) مختلف نقاط ضعف "تراكم رأس المال"، حسب رأيه، أشار إلى أن (ماركس)، في مخططات إعادة الإنتاج، لم يتجرد عن تناحرات الرأسمالية، بل على العكس من ذلك، إنه قام بتحليلها. وهذا ما لم تفهمه روزا لوكسمبورغ. ففي نقدها المضاد، يضيف موتيلوف، لا تقف بالضد من نقدها بل تعمق أخطائها مشيرة إلى أنه لا يمكن تفسير الأزمات كظاهرة دورية في الرأسمالية بالاستناد إلى مخططات ماركس.

من المفيد التذكير بأن مخططات ماركس لا تمثل تعليلاً نظرياً للأزمات الاقتصادية لفيض الإنتاج، بل أشارت إلى واحد من أسبابها: انعدام التناسب بين الإنتاج في كلا القطاعين. وعندما صاغ ماركس مخططاته لإعادة الإنتاج الموسع بين لماذا ينمو الاقتصاد رغم تناقضات الرأسمالية. وتحقيقاً لهذا الهدف، تجاوز ماركس (لأسباب التجريد) العديد من تناقضات الرأسمالية الفعلية، مثل العلاقات الاقتصادية الخارجية واستغلال البلدان ضعيفة التطور. فقد كان هدف مخططات ماركس تبيان الاتجاه (النزوع) طويل المدى للنمو والشروط الضرورية لذلك. فالمخططات، إذن، كان لها هدف محدد وهو أن تبين كيف تحقق الرأسمالية إعادة الإنتاج الموسع وهي تسعى للتغلب على التذبذبات الدورية المرافقة لهذه العملية. ونعتقد أن واحدة من أهم الفضائل النظرية لروزا لوكسمبورغ هي تلك المتمثلة بروية إشكالية إعادة الإنتاج الموسع بغض النظر عن تلك التذبذبات الدورية.

## المبحث الرابع:

### بعض التقويمات المعاصرة لكـ "التراكم"

تعتبر روزا لوكسمبورغ، طبقاً للاتجاه العام لـ "إعادة الاعتبار" ثورية كبيرة. ويعرض العديد من الكتاب المنظرين والمحرفين، الساسة والنشطاء في الحركة العمالية نجاحاتها وإخفاقاتها بشكل موضوعي. وبغض النظر عن الأخطاء النظرية التي ارتكبتها فإنها تُقدّم في الظروف المعاصرة كواحدة من أهم الوجوه من بين المنظرين والممارسين الماركسيين، في ذلك الوقت. ويمكن الإشارة إلى العديد من الأعمال الهامة التي نشرت في "البلدان الاشتراكية" في حينه عن روزا لوكسمبورغ. كما يمكن الإشارة إلى أنه قد كُتب الكثير عنها في الغرب. غير أن أعمال (بول سويزي)، المنظر الماركسي الأمريكي الكبير

<sup>21</sup> موتيلوف، مقدمة الطبعة الروسية لكتاب روزا لوكسمبورغ. ص ٧، وقد ورد النص عند يوزيف زافادسكي، الأفكار الاقتصادية .... ، مصدر سابق، ص 344.

(1910-2004)، ومجموعة المحاضرات التي قُدمت في الكونغرس العلمي المنعقد في **Reggio Emilia** في إيطاليا عام 1974، وغيرها أيضاً، تضمنت محاولات جادة وإضاءة جديدة للنجاح النظري لهذه الكاتبة ومن وجهة النظر الماركسية المعاصرة.

لنبدأ من أعمال (بول سويزي). إنه يعتبر "تراكم رأس المال" واحداً من أهم ثلاثة أعمال ماركسية حول الإمبريالية، عمل (لينين): *الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية*، وعمل (هيلفردنغ): *رأس المال المالي*. إن الأصل (الجذر) المشترك لهذه الأعمال الثلاثة، بحسب (سويزي)، هو تناول العام للفترة التاريخية الجديدة، والمتمثلة في تشخيص هيمنة الإحتكار، والضبط المتنامي باتجاه توسع رأس المال نحو الخارج، وإبراز الدور المتنامي للدولة، والتأثير القوي للإيديولوجية الرجعية. طبعاً، نحن لسنا ملزمين هنا بأن نطابق بين أفكار روزا لوكسمبورغ وأفكار كل من (لينين) و (هيلفردنغ)، ولكن بهدف تكوين صورة شاملة يتعين علينا أن نحدد ليس فقط الخصائص المشتركة، ولكن كذلك الفروقات بين هذه الأعمال.

فبالنسبة لبول سويزي، يعتبر *تراكم رأس المال* عملاً كلاسيكياً، حيث أحتل وبشكل مشروع مكاناً ثابتاً في النظرية الاقتصادية، وبالخصوص في نظرية الإمبريالية. وكذلك فإن روزا لوكسمبورغ تعد واحدة من أهم الوجوه في نظرية الحركة الاشتراكية الدولية<sup>22</sup>.

خاض (سويزي) سجالاتنا مع الإقتصادية الإنكليزية المعروفة (جوان روبنسون)، التي حاولت في المقدمة التي كتبها للطبعة الإنكليزية لـ "التراكم" تقديم روزا لوكسمبورغ كما لو أنها تمثل السلف **Precursor** بالنسبة للكينزية. غير أن سويزي يعتقد بأنه ولأجل فهم "التراكم" لا بد من قراءته في سياق الأدب الاشتراكي عشية تقاطع القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد كانت هذه الفترة فترة نقاشات واسعة بين الماركسيين و "التحريفيين"، تلك النقاشات التي كان موضوعها المركزي يطرح على هيئة سؤال رئيسي هو: هل يمكن للرأسمالية أن تتطور بلا حدود أم يجب أن تنهار بنتيجة تناقضاتها الخاصة؟ وهذا هو ما يمثل القضية الرئيسية لعمل روزا لوكسمبورغ، وعنوان العمل ذاته يبيّن كيف فكرت روزا لوكسمبورغ في البحث عن جواب لهذا السؤال. وباعتقاد (سويزي) فإن إجابة روزا لوكسمبورغ كانت أصيلة وناجحة. وتجلّى ذلك في أن أهم خصائص الإمبريالية، في ذلك الوقت، تم طرحها في هذا العمل بطريقة غير معهودة في الأدب الإقتصادي الاشتراكي. ويعتقد سويزي أن "التراكم" عمل من طراز رفيع رغم بعض الأخطاء الواردة في التحليل، والتي أثرت على الموضوعات المطروحة. ويرى أنه بالرغم من أن نظرية روزا لوكسمبورغ لا تخلو من عدم الوضوح في بعض جوانبها، فإن الشعور العالي والواقعية التاريخية للكاتبة قد سمح لها بالتغلب على النواقص، وبهذا صاغت عملاً دخل إلى الأدب الإقتصادي الاشتراكي ليحتل مكاناً مرموقاً فيه.

وفي المقدمة التي كتبها (جوان روبنسون) للطبعة الإنكليزية لكتاب "تراكم رأس المال" لا يعثر القارئ حتى على أي أثر للروح الثورية لهذا العمل الهام، إذ لا يحتاج القارئ إلى أي عناء ليكتشف أن (روبينسون) كانت تهتم بشيء آخر مختلف تماماً. وباعتبارها (أي جوان روبنسون) تلميذة نجبية لجون م.كينز ومكمّلة لأعماله، فإنها على ما يبدو كانت تبحث دائماً عن ما هو مشترك ومماثل لنظرية معلمها وأستاذها. وحسب اعتقاد (سويزي) فإن (جوان روبنسون) وضعت جانباً كل حجج روزا لوكسمبورغ التي ابتعدت فيها عن نظرية (كينز)، وتقدم بدلاً عنها تأويلاتها، التي هي بدون شك قريبة للمذهب الكينزي، والتي لم تثر أية حماسة تذكر عن روزا لوكسمبورغ.

<sup>22</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: بول سويزي، *ثلاثة أعمال حول الإمبريالية وكذلك الوهم حول الثورة الإدارية*. كذلك لنفس الكاتب، *الحاضر كتاريخ*. نيويورك 1962، ص 64 ولاحقاً.

ولكن يبدو أن محاولات توظيف الإرث الكينزي لصالح الأهداف الراهنة لمختلف التيارات الفكرية والسياسية لا تقوم به (جوان روبنسون) لوحدها. بل يمكن للمرء أن يلاحظ وجود تيارات أخرى مثل الطلاب اليساريين والفضويين في الستينات، و"الماويون الجدد".... الخ، والتي كانت تبحث عند روزا لوكسمبورغ، ومن خلال أعمالها، على ما يؤكد "مشروعية" مواقف تلك التيارات، وخصوصاً علاقتهم العدائية بقوى اليسار و"الشيوعية التقليدية". على سبيل المثال يلاحظ أن مجموعة من المؤلفين اليساريين الأمريكان، وفي العمل الموسوم:

### The Russian Revolution and Leninism or Trotskism by Rosa Luksemborg

قاموا بتفسير عمل روزا لوكسمبورغ بروح معاداة اللينينية.

ونظراً لأن المكان لا يتسع بالطبع لاستعراض جميع الأعمال المنشورة خلال هذه الفترة، لذا سنركز الإهتمام على تلك التي **تنشغل** بالنظرية الإقتصادية لروزا لوكسمبورغ. تمثل **الخاصية المميزة** لمعظم هذه الأعمال بعلاقتها الموضوعية بنتاج روزا لوكسمبورغ، هذا النتاج الذي انتهى اليوم أن يمثل موضوعاً للمعارك السياسية المباشرة التي أصبحت على ذمة التاريخ.

على سبيل المثال لا الحصر فإن البروفيسور البولندي (ر.كرادوفسكي R.Gradowsk) وفي تقريره الموسوم: **روزا لوكسمبورغ: منظرية ومناضلة الحركة العمالية الدولية**، الذي قدم الى الكونغرس العلمي المنعقد في **Reggio Emilia** في إيطاليا عام 1974، أكد، وهو على حق، أنه بالنسبة لروزا كانت "الإمبريالية تمثل مرحلة من مراحل الرأسمالية. وترى أن كل خصائص الإمبريالية مثبتة في التعريف الكلاسيكي للينين". غير أنه يؤكد من جهة أخرى بأن "روزا - كما لو أنها توصلت الى معرفة خصائص الإمبريالية - لم تجد الوقت الكافي لأن تحلل علاقاتها الداخلية. ومن هنا ليس مصادفة انعدام وجود تصنيف منتظم وملائم". هنا وضع (كرادوفسكي) يده على واحدة من هذه الأسباب: **اختلاف الزمان**. فمن المعلوم أن (لينين) كتب كتابه الشهير: **الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية** خلال فترة الحرب العالمية الأولى، في حين ظهر كتاب روزا لوكسمبورغ "تراكم رأس المال" في عام 1912، أي أن تجارب حرب إمبريالية عالمية كبيرة كان يمكن التنبؤ بها فقط.

يتأمل (كرادوفسكي) بالاتهام المثار ضد روزا لوكسمبورغ بكونها هي التي صاغت نظرية الانهيار الآلي للرأسمالية، وتوصل الى استنتاج يقول بأنه "على أساس الصياغات الأصلية لروزا فإنه من الصعب رؤية آثار نظرية الانهيار الآلي، وكذلك عدم تقييمها لدور عامل النشاط الواعي البروليتاريا"<sup>23</sup>. أما (جيفولسكي) فقد أجرى مواجهة **Confrontation** لأفكار روزا لوكسمبورغ مع الواقع التاريخي وكذلك مع أفكار لينين. وقد نشر هذا الكاتب دراسة مهمة بعنوان: "حول المضمون الفعلي والقيم العلمية لنظرية التراكم لروزا لوكسمبورغ"<sup>24</sup>، كما أنه شارك في حلقة نقاش بعنوان: **الخلافات الأيديولوجية حول روزا لوكسمبورغ**. ونظراً لأنه، وفي كلتا الحالتين، عرض كما قال هو، أفكاراً مقارنة لأفكار البروفيسور (م.ميشجانوفسكي)، فإننا سنقوم هنا بتلخيص أفكارهما سوياً.

يرى البروفيسور (ميشجانوفسكي)<sup>25</sup> أن روزا لوكسمبورغ اعتمدت المنهج الماركسي العلمي، وكذلك الموضوعات الأساسية لماركس والمتعلقة بتحليل النظام الرأسمالي. وإضافة لذلك فإنه يعتقد أن هذا يمثل منبعاً لقوة وضعف "التراكم" كذلك. **الضعف** هنا - المقصود به اعتماد فرضية المستوى الثابت للأجور الحقيقية، الذي يقود لاعتماد موضوعة أن دخول الجزء الأكبر من المجتمع تتنامى فقط بمقدار ما يتنامى التشغيل، وحسب ذلك فإن سوق التصريف لهذا الجزء الكبير من المجتمع ينمو ببطء كبير جداً. ينبغي أن نتساءل هنا: هل اعتماد ماركس حقاً الفرضية القائلة بأن الأجور لا تنمو على العموم (في عهده كانت

<sup>23</sup> قارن: ر.كرادوفسكي، روزا لوكسمبورغ - منظرية ومناضلة حركة الطبقة العاملة العالمية، "من ساحة المعركة" 1971/، العدد 3.

<sup>24</sup> انظر: يان جيفولسكي، حول المضمون الحقيقي والقيم العلمية لعمل روزا لوكسمبورغ "تراكم رأس المال"، "الاقتصادي" 1970، العدد 1970/1، (باللغة البولندية).

<sup>25</sup> م.ميشجانوفسكي، الإحتكار. الجزء الثالث، مصدر سابق، وارشو 1982، ص 557.

الأجور الحقيقية مساوية للأجور الاسمية لأن الذهب كان يستخدم كعملة وهذه ملاحظة هامة تغيب عن بال كثير من الباحثين). لقد كتب **ماركس** في الكتاب الأول من **الرأسمال** بأنه وبغض النظر عما إذا كانت الأجور تنمو أو تنخفض، فإن قوة العمل تبقى سلعة، وأن وضع جيش الاحتياط الصناعي يظل سيئاً.

ولكن إذا كان (**ميشجانوفسكي**) - وهو يقتفي أثر (**بول سوزي**) - يعتقد بأن إدخال نمو الأجور الحقيقية الى التحليل سيسهل قضية التحقيق وأسواق التصريف، فإنه يخطئ في ذلك. إذ إن المقصود ليس النمو المطلق للأجور (نفس الشيء: اسمية أم حقيقية)، بل أن الحديث يدور حول حصة الأجور في كتلة السلع المنتجة.

لقد وضع (**بول سوزي**) هذه القضية في المقدمة التي كتبها للطبعة الإيطالية لـ "تراكم رأس المال" عندما أشار الى أن "التراكم والاستهلاك مرتبطان ببعضهما البعض بتلك الطريقة حيث نمو التراكم يعتمد على نمو الاستهلاك. هنا كانت روزا لوكسمبورغ على حق. غير أنها أخطأت عندما أكدت على أن منطق مخططات إعادة الإنتاج الموسع لا يسمح بنمو الاستهلاك، سواء من جانب العمال أم من جانب الرأسماليين، أو كلا الطبقتين سوية. وفي الممارسة فإن إعادة الإنتاج الموسع تجلب معها - على أساس سننها النازمة- نمو دخول العمال، والرأسماليين، وليس هناك أي سبب رصين للقبول بأن كلتا الطبقتين لا تنفق أي جزء من نمو الدخل على توسيع (زيادة) الاستهلاك. ولكن حيثما يجد ذلك مكانه فإنه من الممكن أن يكون الاستهلاك متوسعاً، وأن موضوع روزا لوكسمبورغ حول عدم إمكانية التراكم سيطاح بها "

26

لاشك أن كلاً من (**سوزي**) و (**ميشجانوفسكي**) يمتلك جزءاً من الحقيقة، ونقصد بذلك الأطروحة القائلة بأنه ارتباطاً بالنمو المطلق للاستهلاك تنمو إمكانية التحقيق في الحجم المطلقة. غير أن يتعين التأكيد على حقيقة أن النمو المطلق للاستهلاك الفردي الإنتاجي وغير الإنتاجي لا يحل بعد قضية مشكلة التحقيق.

ومما يثير الاستغراب أمر سوزي الذي خصص حوالي ثلث عمله الهام ( الذي كتبه بشكل مشترك مع بول باران) <sup>27</sup>، ونقصد به "رأس المال الاحتكاري"، لقضية امتصاص الفائض الإقتصادي. فالفصل الثالث لهذا العمل ظهر تحت عنوان: **الفائض ذو النزوع نحو النمو**، والفصل الرابع بعنوان: **امتصاص الفائض: استهلاك واستثمارات الرأسماليين**. وكما يلاحظ فإن استهلاك واستثمارات الرأسماليين ( ونضيف - استهلاك العمال) لا تحل بعد القضية. ورغم أنه بحث، في الفصل الخامس، قضية تكاليف البيع، وفي الفصل السادس تظهر الحكومة كعامل لامتصاص الفائض، فإنه يبحث، في الفصل السابع، العسكرية والإمبريالية الممتصة للفائض. ولهذا فإنه إذا كان نمو الدخل والنفقات لكلا الطبقتين يتيح بحد ذاته إعادة الإنتاج الموسع، فمن أين إذن تظهر مشكلة الفائض الذي يتعين فيما بعد امتصاصه؟ وبهذا المعنى لماذا يكون لبول سوزي الحق في أن يكتب حول امتصاص الفائض في حين لا يحق لروزا لوكسمبورغ التفكير بهذه الإشكالية؟

ويتعلق نفس الأمر بالأطروحة المقدمة من طرف البروفسور (**ميشجانوفسكي**)، ونقصد بها مشكلة الشرائح غير الإنتاجية ونمو السكان. يثير (**ميشجانوفسكي**)، وهو يقتفي أثر الاقتصادي البولندي المعروف (**كالييتسكي**)، الانتباه الى موجات الابتكارات الكبرى، التي يمكن أن تكون مصدراً للتحقيق، وبالأخص السلع الاستثمارية. إنها بالطبع فكرة صائبة، وعلى الأخص إنه في فترة الثورة العملية - التقنية حيث يمكن للابتكارات أن تمثل مصدراً إضافياً لتحقيق منتجات القطاع الأول. غير أنه لا يجب تضخيم أهمية هذا العامل لعدة أسباب من بينها:

<sup>26</sup> قارن : بول سوزي، مقدمة للطبعة الإيطالية لـ " تراكم رأس المال " . تورينو، 1950، ص XXVII- XXVIII، والنص مأخوذ عن يوزيف زافادسكي، الأفكار الاقتصادية ..... ، مصدر سابق، ص 360.

<sup>27</sup> بول باران، بول سوزي: الرأسمال الاحتكاري، ص 100 ولاحقاً.

**أولاً :** أن الابتكارات لا تشكل سوى جزء ضئيل فقط من الإنتاج الإجمالي.  
**ثانياً :** على المدى الطويل، توسع الابتكارات ليس فقط الطلب ولكن العرض كذلك. ينمو الإنتاج بوتيرة أكبر من الابتكارات، وفي الواقع فإنه من الممكن كذلك نمو الابتكارات، التي لا تستحث مباشرة ( على الفور) نمو الإنتاج. وفي نهاية المطاف فإن كتلة المنتجات الاستهلاكية يجب أن تنمو بنتيجة الابتكارات، بغض النظر عن نمط التقدم التقني. الابتكارات، إذن، لا تحل المشكلة.

يؤكد (ميشجانوفسكي)، في واحدة من دراساته المهمة، بأن " روزا لوكسمبورغ أشارت في عملها الى ما هو أكثر جوهرية في الإمبريالية، كنظام عالمي للرأسمالية الاحتكارية " <sup>28</sup>. ومن وجهة النظر هذه فإن الصراع الداخلي للرأسمالية الاحتكارية من أجل استغلال بقية العالم وكفاح هذا الجزء المستغل ( بفتح الغين) من العالم ضد الإمبريالية، قد أصبح القضية الاقتصادية الأساسية للعالم. ومن هنا تأتي الحروب الإمبريالية، وحروب التحرر الوطني، وكذا الكوارث والهزات الاقتصادية والثورات.

إن فهم ميشجانوفسكي، في هذا العمل، قد قاده للاستنتاج بأن " التاريخ برهن بأن (تراكم رأس المال) لروزا لوكسمبورغ قد أصبح نظرية لتراكم رأس المال الاحتكاري - الدولتي ( رأسمالية الدولة الاحتكارية) " <sup>29</sup>. ويبدو أن هذا الافتراض غير مقبول أو غير مبرر بما فيه الكفاية. فمن المعروف أن " التراكم " لا ينشغل أبداً بقضية النشاط الاقتصادي للبلدان البرجوازية. وبالرغم من أن روزا لوكسمبورغ كشفت، وبذكاء، بعض الخصائص المحددة للنشاط الاقتصادي للدول فإننا، وفي عموم كتابها هذا أو كتاباتها الأخرى، لا نعثر على كلمات من طراز " رأسمالية الدولة " أو " رأسمالية الدولة الاحتكارية ". وليس في ذلك أية غرابة، إذ أن رأسمالية الدولة الاحتكارية تشكلت فيما بعد، في سنوات الحرب العالمية الأولى. وبهدف تحقيق الانتصار النهائي، في ساحة الحرب، كانت الحكومات مضطرة لتركز الاقتصاد في قبضتها، وتراكم الخامات، والغذاء، وتوجيه القوى العاملة الى أهم الفروع، وتوزيع الموارد غير الكافية هناك حيث تكون ضرورية لضمان الانتصار في الحرب، هذا إضافة الى تنظيم العلاقات بين العمل ورأس المال. وهنا يمكن القول بأن الحرب الإمبريالية ( 1914 - 1918 ) كانت تمثل لحظة إنعطافية لانبثاق وتطور رأسمالية الدولة الاحتكارية المعاصرة.

يبدو أن أهم عمل من بين الأعمال التي نشرت، في العقود الأخيرة، باللغة البولونية، حول نظرية التراكم والإمبريالية لروزا لوكسمبورغ هو بدون شك عمل (تاديوش كوفاليك Tadeusz Kowalik) الموسوم : روزا لوكسمبورغ. نظرية التراكم والإمبريالية <sup>30</sup>. في مقدمة الكتاب يشير هذا الكاتب الى أن التراكم هو الموضوع الوحيد لتأملاته في هذا العمل. وإذا فهمنا جيداً هدف هذا العمل فإنه يمكن الاستنتاج بأن كوفاليك يريد البرهنة على أن روزا لوكسمبورغ كانت بمثابة الأب الروحي لـ " الإقتصاد الجديد "، أي نظرية كينز - كالميتسكي. غير أن (كوفاليك) يبصر نفسه في الوقت ذاته بأن الفروقات، واختلاف التصورات، ووجهة النظر الطبقيّة المتباينة ... الخ بين " الوردة الحمراء " وبين (كينز) كبيرة جداً، ولا يمكن لأي مقارنة شكلية أن تلغيها. في حين نرى أن (كالميتسكي) يعتبر أهم مكمل للعمل النظري الذي نهضت به روزا لوكسمبورغ، حيث هو الذي طوّر تلك القضايا التي لم تستطع مؤلفة تراكم رأس المال حلها. ولهذا فإنه يمكن الإعتقاد بأن مضمون العمل، ومن مختلف التعليقات، وأغلبها مشروع، يتيح الاستنتاج بأن (كالميتسكي) ليس هو " البطل " الثاني لهذا العمل كما يؤكد ذلك (كوفاليك) <sup>31</sup>، ولكنه الأول، وسنحاول البرهنة على ذلك.

<sup>28</sup> قارن: م. ميشجانوفسكي، الاحتكار. الجزء الثالث، مصدر سابق، وارشو 1982، ص 557.

<sup>29</sup> نفس المصدر السابق.

<sup>30</sup> تاديوش كوفاليك، روزا لوكسمبورغ. نظرية التراكم والإمبريالية، مصدر سابق ( باللغة البولندية).

<sup>31</sup> تاديوش كوفاليك، روزا لوكسمبورغ. نظرية التراكم والإمبريالية، مصدر سابق ص 8.

**يستند (كوفاليك) على كلمات (كالييسكي) الفائلة بأن هذه النظرية (أي نظرية روزا لوكسمبورغ حول ضرورة تحقيق ذلك الجزء من فائض القيمة في الوسط غير الرأسمالي - ص.ي) لا يمكن أن تكون مقبولة بالكامل، ولكن ضرورة تعطية " فجوة الادخار " من قبل الإستثمارات المحلية أو من طرف التصدير أصبحت مطروحة هنا بشكل أكثر وضوحاً من أي وقت مضى قبل ظهور " النظرية العامة لكينز ". هنا تكون " أبوة " روزا لوكسمبورغ ليس فقط الى نظرية كالييسكي، ولكن كذلك لنظرية كينز. وهذا يتوضح فيما لو أخذنا بنظر الاعتبار حقيقة أن نظرية كالييسكي، في أهم موضوعاتها، تتماثل مع نظرية كينز. عندها سيكون لدينا هنا ، إذن، ليس بطلين في هذا العمل، بل هناك بطل ثالث وراء الكواليس هو : (جون مينارد كينز). ويبدو من هذه الملاحظة أن كوفاليك ليس أصيلاً في مقاربتة لهذه القضية، بل يمكن القول إنه يقتفي أثر جوان روبنسون.**

**لقد سعى (كوفاليك) ، بحدود الممكن، أن يحافظ على موضوعيته تجاه نتاج روزا لوكسمبورغ، ولكنه برغم ذلك، وكما نلاحظ، لم ينجح دائماً، في مسعاه هذا. إنه خاض سجلاً مع نقاد روزا الذين يزيفون الحقائق والمنطق، من أجل البرهنة، وبأي ثمن، على أن روزا لوكسمبورغ تخلت عن الماركسية. ويمكن للمرء أن يشاطره تماماً هذا الرأي عندما يعتبر الجزء الثالث من " التراكم " بأنه الجزء الأهم والأكثر ثراء في هذا العمل، من حيث المضمون. كما أنه على حق أيضاً عندما يؤكد على أن بحث ودراسة الشروط التاريخية لتطور الرأسمالية تعطي " التراكم " أصالته المميزة. ولكنه من جهة أخرى فإنه كان على قناعة بأن الجزء الثاني من هذا العمل الموسوم : القضية في تناول تاريخي، تمثل مدخلاً زائفاً لهذه الإشكالية.**

**إن عدم التقييم المحدد لهذا الجزء من طرف (كوفاليك) ناجم، على ما يبدو، عن حقيقة أنه عند " قعقة السلاح " كما يقال، لا يجد (كوفاليك) نفسه دائماً الى جانب روزا لوكسمبورغ. ولكنه بالمقابل على حق حين أكد على أن نظرية التراكم اللوكسمبرغية ليست نظرية للأزمات، بل هي نظرية لتطور الرأسمالية. غير أنه يتهم روزا، وبدون إنصاف، بأنها كانت مهياة لإهمال الأسعار والأزمات . غير أن القارئ النبه لهذا العمل لن يعثر على مثل هذا " الإهمال " في أعمال روزا لوكسمبورغ، ومن بينها " التراكم " .**

**وخلاصة القول أن المميز بالنسبة لتناول كوفاليك للظواهر المطروحة هو التالي : إنه يقتبس كلمات روزا، فهي الفائلة بأنه كلما كان معدل البطالة قليلاً كلما كانت الأجور أعلى، وبالعكس بمقدار ما تنمو مستويات البطالة فإن الأجور ستتنخفض<sup>32</sup>. غير أن مثل هذا التأكيد قديم قدم " الرأسمال "، عمل كارل ماركس الأهم، والأعمال التي سبقتة. لاشك أن المرء يتذكر سجل ماركس مع نظرية الإقتصاد السياسي المبتذل Vulgar المعروفة بـ " مخصص الأجور "، والتي طبقاً لها يوجد في كل بلد وفي كل فترة مخصص دائم ومحدد للأجور، وإنه كلما كانت الأجور منخفضة كلما كان مستوى التشغيل مرتفعاً. وجوهر فكرة هذه النظرية هي أن البطالة ستكون في أدنى مستوى لها عندما تكون الأجور على أدنى مستوى، والعكس صحيح. وهذا، في الواقع، لا يمثل سوى مجرد هراء Absurd، حيث أنه متناقض بالكامل مع التجربة العملية.**

**وبمقابل ذلك يمكن القول أن مساهمة الإقتصادي الفرنسي المعروف (كريستيان بالوا) تعد واحدة من المساهمات المهمة المعاصرة لقراءة الخطاب الإقتصادي لروزا لوكسمبورغ. فقد قام بالوا بقراءة ناقدة لهذا الخطاب، كاشفاً أبرز عناصره ومكوناته. وفي عمل مهم له<sup>33</sup>، يشير بالوا، كما بيتنا في مكان آخر من هذه الدراسة، الى أن الخط النظري العام، لمسألة الإمبريالية، لا يخلو بالنسبة لروزا لوكسمبورغ، من تماثل عميق مع خط لينين. ولكن لإثبات وجهة النظر هذه، لابد من التذكير بأن القسم الأول والثاني من " تراكم رأس المال "، الجزء الأول، هو إعادة للموضوعات الرئيسية المثارة من قبل لينين، في نقاشه، في**

<sup>32</sup>المصدر السابق ص 8.

<sup>33</sup> أنظر : كريستيان بالوا، الإقتصاد الرأسمالي العالمي. المرحلة الاحتكارية والإمبريالية الجديدة. ترجمة عادل عبد المهدي. دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، بيروت 1978.

1893 - 1899، سواء مع الشعبين الروس، أو مع الماركسيين الشرعيين. كل ذلك فيما يتعلق بمسألة السوق الخارجية على أساس أنها مجال تحقيق الناتج الاجتماعي بشكل عام، ولفائض القيمة بشكل خاص

34

في عملها الإقتصادي الأهم "تراكم رأس المال" طرحت روزا لوكسمبورغ، مسألة الإمبريالية باعتبارها الحل لتناقضات نمو الإنتاج. ويبدو من البداية، بأن أسس المسار النظري تتماثل، ولكن هذا التماثل لا يكون، في الحقيقة إلا على مستوى المسألة المطروحة، وليس على مستوى القاعدة النظرية التي ينطلق منها بحث مسألة الإمبريالية. ففي حين عالج لينين، عند مناقشته للشعبيين والماركسيين الشرعيين، مسألة تحقيق الناتج الاجتماعي، انطلاقاً من عملية الإنتاج ذاتها (الكتاب الأول)، وذلك لتحقيق الترابط النظري لمسألة السوق الخارجية، تنطلق روزا لوكسمبورغ عند بحث المسألة من "عملية التداول"، وهي "تعترف" بوضوح كامل بأسلوب طرحها للمسألة.

يتساءل بالوا عن سبب هذا الاختلاف بين المدخل اللينيني والمدخل اللوكسمبورغي، وهل أن انطلاقتها كانت خاطئة؟ يجيب (بالوا) بأن روزا لوكسمبورغ لا تعتقد ذلك، ويتفق معها في هذا المجال. يكمن السبب في اتفاق بالوا مع لوكسمبورغ في حقيقة أن هذه المنظرة الكبيرة - التي يعترف بها (لينين) - تدرك النقطة المتميزة للتحليل الماركسي، التي هي وحدة عملية الإنتاج وعملية التداول باعتبارهما عملية مشتركة للإنتاج الرأسمالي. إلا أن خطأها النظري، بحسب بالوا، القليل بالنسبة لشهرتها النظرية، لا يبقى بدون نتائج تؤثر على الممارسة السياسية. يكمن خطأها في محاولتها اعتبار مخططات إعادة الإنتاج الموسع لرأس المال الاجتماعي، كنقطة متميزة لهذه الوحدة. وتستطيع روزا لوكسمبورغ، بكل تأكيد، إثبات أن ماركس نفسه يُعرّف هذه المخططات بكونها الممثلة لوحدة عملية الإنتاج والتداول<sup>35</sup>. إلا أن ما تنسأه الكاتبة هو أن هذه المخططات، هي وحدة عملية الإنتاج وعملية التداول، خارج المحددات الجديدة التي تنتجها مخططات إعادة الإنتاج الموسع حسب دياكتيكها الخاص. ومن هنا يتأتى سوء الفهم لدى روزا لوكسمبورغ.

وبرغم هذه الملاحظات النقدية الهامة، يؤكد (كريستيان بالوا) على أن التحليل الذي قدمته روزا لوكسمبورغ لهذه الإشكالية يمثل "مساهمة مركزية صحيحة نظرياً، وهي المتعلقة بتحديد تناقضات نمط الإنتاج الرأسمالي، رغم ذلك المكان الخاطئ الذي ترتبط به، أو الطبيعة الخاطئة، جزئياً، للممارسة السياسية الناتجة عن ذلك، وتحفظ نظرية الإمبريالية بكل أبعادها الصحيحة، وذلك عندما تعالج مسألة طبيعة الإمبريالية باعتبارها النفي الخارجي لتناقضات نمط الإنتاج الرأسمالي" <sup>36</sup>.

لقد قام (بالوا) بإجراء مقارنة رائعة لتناول كل من (لينين) وروزا لوكسمبورغ لظاهرة الإمبريالية، ساعياً للكشف عما هو مشترك وما هو مختلف بين التناولين. حيث يشير، في هذا المجال، إلى أن روزا لوكسمبورغ، مثلها مثل لينين، تلجأ أولاً إلى تحليل التناقضات الناتجة عن بنية نمط الإنتاج الرأسمالي، بحيث تكون الإمبريالية النفي لهذه التناقضات وذلك من خلال تناقض رئيسي، إلا وهو التناقض القائم بين خلق وتحقيق الفائض. وفي أعقاب ذلك، لا يمكن أن يأتي حل التناقضات التي تؤثر على إعادة الإنتاج الموسع لرأس المال الاجتماعي - باعتبارها الموقع الذي تندرج فيه هذه التناقضات - إلا من خلال مجالات التصريف التي تقع خارج القطاعات الإنتاجية، أي خارج القطاعين الإنتاجيين الأول والثاني.

تقوم الإمبريالية، التي تلد من تناقضات بنية نمط الإنتاج الرأسمالي، بإنشاء علاقات محددة بين البلدان الرأسمالية المتطورة، والبلدان الأقل تطوراً، وذلك لتهيئ امتصاص الفائض الرأسمالي مأخوذاً على صعيد

<sup>34</sup> المصدر السابق، ص 70.

<sup>35</sup> المصدر السابق ص 71.

<sup>36</sup> المصدر السابق، نفس الصفحة.



واحد، والذي هو تبادل السلع، مما يقود الى تقاسم العالم بين الأمم الرأسمالية، ومن خلال الناحية الأخيرة هذه تقدم روزا لوكسمبورغ تعريفها للإمبريالية:

"إن الإمبريالية هي التعبير السياسي لسيرورة التراكم الرأسمالي التي تظهر بالمنافسة بين رأسمالي الأمم حول آخر المناطق غير الرأسمالية التي مازالت حرة".

ويلخص (بالوا) ملاحظاته بصدد النقاش الذي يتناول كتاب روزا لوكسمبورغ "تراكم رأس المال" مشيراً الى أن هذا النقاش يدور بخصوص النقطتين التاليتين<sup>37</sup>:

- عدم إدراج الكاتبة لكيفية إدراج التناقضات في مخططات إعادة الإنتاج الموسع للرأسمال الإجتماعي، بدون أن تحدد هذه المخططات تلك التناقضات.
- الإشارة الضمنية للنموذج التنافسي لتحديد مفهوم الإمبريالية، مما يثير العديد من الإشكاليات المنهجية المرتبطة بصياغة هذا المفهوم.

وتكشف منظرنا الألمانية ببساطة السؤال الذي يتعلق، بمسألة مجالات التصريف التي يقتفيها العمل الداخلي للنظام عبر مرحلة الرأسمالية الاحتكارية. وهنا تبرز الحدود النظرية للبناء الذي شيدته روزا لوكسمبورغ، وذلك بعدم وصولها الى استنتاجات فيما يخص الرأسمالية الاحتكارية، وهذا ما يشكل جوهر مساهمات لينين وباران و سويزي حول مسألة الإمبريالية. وقد نتج عن ذلك، بأن مؤلفة "التراكم" لم تستطع أن تستخلص، انطلاقاً من التخلي عن النموذج التنافسي، كافة الحثيات الجديدة، من أجل تعريف الإمبريالية، ومعرفة آلياتها للسيطرة، وأثارها على تطور الأمم التي تتعرض للعلاقات الإمبريالية. ولكن برغم ذلك، يؤكد بالوا على ضرورة أن يؤخذ المرء بالاعتبار حقيقة أن البناء النظري الذي قدمته روزا لوكسمبورغ يحمل بذاته الطريق لتعميق نظرية الإمبريالية<sup>38</sup>.

ومن جهة أخرى، يبدو المفكر الاقتصادي المصري المعروف (سمير أمين)، في العديد من أعماله<sup>39</sup>، متعاطفاً مع التحليل الذي قدمته روزا لوكسمبورغ للظاهرة الإمبريالية ومستوى التجريد الذي أطلت منه لصياغة نموذجها النظري لهذه الظاهرة. ففي كتابه "التطور اللامتكافئ"<sup>40</sup> يشير أمين الى أن عبقرية روزا لوكسمبورغ تكمن في أنها فهمت أن العلاقات بين المركز والمحيط - حسب التعبير الأثير لأمين - تقوم على أساس التراكم البدائي، إذ ليس المبحوث هنا الآليات الخاصة بالاشتغال الذاتي لنمط الإنتاج الرأسمالي، ولكن المقصود هو العلاقات بين نمط الإنتاج هذا وتشكيلات مختلفة.

وكما تبين نظرية نمط الإنتاج الرأسمالي - وقد برهن على ذلك ماركس ولينين - فإن تحقيق فائض القيمة يعد مشكلة نقدية، مشكلة التطور الملائم للأرصدة. أما روزا لوكسمبورغ فهي تدخل في مجادلة من طبيعة أخرى وتطرح مشكلة من طبيعة أخرى، لأن الإشكالية عندها مختلفة. فهي لا تضع نفسها في إطار نمط الإنتاج الرأسمالي (إطار كتاب ماركس: الرأسمال) بل تدرس في الواقع مشكلة عملية أخرى: مشكلة الانتشار العالمي للرأسمالية أي مشكلة العلاقات بين تشكيلات (تخلع الأوساط ما قبل الرأسمالية). أي إنها لا تقف في إطار نمط الإنتاج الرأسمالي (إطار الرأسمال) ولكنها تدرس مشكلة أخرى، هي مشكلة التوسع العالمي للرأسمالية، مشكلة العلاقات بين تشكيلات اجتماعية رأسمالية (تشكيلات المركز وتشكيلات المحيط) ومشكلة تحول هذه التشكيلات (تلك الأوساط ما قبل الرأسمالية). لقد بينت روزا لوكسمبورغ أن هناك، في موازاة عملية إعادة الإنتاج الموسع عن طريق تعميق السوق الداخلية لنمط الإنتاج الرأسمالي، عملية تراكم بدائي. وهكذا يتم باستمرار تجاوز التناقض الدائم بين

<sup>37</sup> كريستيان بالوا، الاقتصاد الرأسمالي العالمي.....، المصدر السابق، ص 75 ولاحقاً.

<sup>38</sup> المصدر السابق، ص 75.

<sup>39</sup> أنظر: سمير أمين، التطور اللامتكافئ، دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية. ترجمة برهان غليون. الطبعة الثانية. دار الطليعة، بيروت 1978، كذلك: سمير أمين، التراكم على الصعيد العالمي - نقد نظرية التخلف - . ترجمة حسن قبيسي. دار ابن خلدون، الطبعة الثانية، بيروت 1978.

<sup>40</sup> أنظر: سمير أمين، التطور اللامتكافئ.....، مصدر سابق، ص 116 - 117.

القدرة على الإنتاج والقدرة على الاستهلاك والعاكس للتناقض الأساسي لنمط الإنتاج الرأسمالي، عن طريق تعميق السوق الداخلية (الرأسمالية المحصنة) وعن طريق التوسع الخارجي في الوقت نفسه<sup>41</sup>. وبحسب (سمير أمين)، يعود الفضل الى روزا لوكسمبورغ لكونها قد بينت أن هناك عملية معاصرة من عمليات التراكم الأولى كانت مستمرة بشكل مواز لعملية إعادة الإنتاج الموسع بتعميق السوق داخل نمط الإنتاج الرأسمالي. هكذا فإن التناقض الدائم بين الطاقة على الإنتاج والطاقة على الاستهلاك، الذي هو انعكاس للتناقض الجوهرى لنمط الإنتاج الرأسمالي، يصار الى تجاوزه عن طريق تعميق السوق في الداخل " رأسمالية خالصة " وانتشارها في الخارج. هذا التناقض الدائم، الذي يتجاوز باستمرار، هو كذلك تناقض متعاظم. فهو يتجلى، إذن، بفائض متعاظم من رؤوس الأموال في نفس الوقت الذي تتمركز فيه الرقابة على رؤوس الأموال هذه، وتمتد السوق الرأسمالية الى العالم بأسره. ولكن (سمير أمين) يطرح قضية مهمة، ولكنها يمكن أن تثير نقاشاً جدياً، وقوامها أن البرهان على أن فائض القيمة لا يمكن تحقيقه بدون المجال الخارجي، برهان خاطئ: إعادة الإنتاج الموسع، ممكنة بدون الأوساط الرأسمالية، على اعتبار أن المجال الخارجي، الذي لم يكن موجوداً، قد أوجد فيما بعد بواسطة الاستثمار نفسه. والحال أن هذه المسألة جوهرية لفهم اتجاه نمط الإنتاج الرأسمالي لأن يصبح النمط الوحيد عندما يكون مبنياً على السوق الداخلية<sup>42</sup>.

غير أن للمفكر الأفريقي (راي) مقارنة من نوع آخر. ففي الوقت الذي نراه يسير على خطى لوكسمبورغ في التأكيد على أن الرأسمالية كانت بذاتها منطوية على نزوع داخلي متأصل نحو التوسع على حساب المجتمعات ما قبل الرأسمالية التي نشأت في رحمها، فإنه يطرح سؤالاً محدداً: لماذا تقدمت مناطق في حين أن مناطق أخرى لم تحذو حذوها؟ إذا كان للرأسمالية بحد ذاتها التأثير نفسه في كل مكان، فلا بد من العثور على الفرق أو الاختلاف في النصف الآخر من التمثيل، أي في الأنماط ما قبل الرأسمالية التي هي أداة وترتبة التطور الرأسمالي (كما تقول لوكسمبورغ). هنا ينتقد (راي) روزا لوكسمبورغ لأنها - باعتقاده - أخفقت في تناول الآليات الداخلية لهذه الأنماط تناوياً جدياً. ويقول هنا أن " الرأسمالية ازدهرت حيث خلفت النظام الإقطاعي، في حين أن البلدان غير الغربية، باستثناء اليابان، بدت وما زالت تبدو أوساطاً ملعونة وبائسة فيما يخص تطور العلاقات الرأسمالية في الإنتاج " <sup>43</sup>.

إن أوجه الشبه ونقاط الخلاف بين رواية (راي) لتاريخ تطور الرأسمالية من جهة ورواية روزا لوكسمبورغ لتاريخ نفسه من جهة أخرى واضحة. فكلهما يؤكد على دور القهر في عملية توسع علاقات الإنتاج الرأسمالية، ولكن (راي) يميز بحددة بين دور القهر والعنف في الانتقال من الإقطاع الى الرأسمالية (حيث القهر والعنف يمارسان من قبل الطبقة الإقطاعية الحاكمة نفسها)، وبين دورهما في عمليات انتقالية أخرى (يتم فيها القهر بأيدي أناس من الخارج). كما يميز بين تحويل إقتصاد طبيعي معين الى نظام يقوم على إنتاج السلع (وهو نظام لا حاجة به لأن ينطوي على أي قهر أو عنف، على الأقل لدى ترسيخ قاعدة الإنتاج السلعي المحدود الذي يحتاجه رأس المال لتوليد تجارة خارجية مربحة) وبين تحويل علاقات الإنتاج من خلال خلق بروليتاريا.

ومن جانب آخر فإن البولندي (ليشك كولاكوفسكي)<sup>44</sup>، يرى أن روزا لوكسمبورغ أخطأت عندما اعتبرت الرأسمالية نظاماً عالمياً يضم عموم الكرة الأرضية. وبكلمات أخرى يفترض نموذجها إبراز مختلف الفروقات بين ما يسمى بالعالم رفيع التطور و" العالم الثالث ". ويعتقد (كولاكوفسكي) أن التطور الإقتصادي الفعلي يتعارض مع المنطلقات أعلاه. فعلى الصعيد الاجتماعي، تفترض نظرية التراكم اللوكسمبورغية وجود نزعات لبلترة الطبقات، حتى تلك اللحظة، التي سيكون فيها المجتمع الرأسمالي

<sup>41</sup> سمير أمين، التطور اللامتكافئ، مصدر سابق، ص 136 - 137.

<sup>42</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: د. سمير أمين، التراكم على الصعيد العالمي - نقد نظرية التخلف - ، مصدر سابق.

<sup>43</sup> أنظر: ب.ب. راي: التحالفات الطبقيّة، ماسبيرو، باريس 1973 ص 11. وقد ورد الاقتباس عند: أنتوني برور، النظريات الماركسية عن التبعية.

" جدل " العدد 1992/3، ص 338.

<sup>44</sup> لمزيد من التفاصيل قارن: ليشك كولاكوفسكي، التيارات الرئيسية للماركسية. الجزء الثاني، باريس 1977.

مؤلفاً فقط من رأسماليين وعمال. وهذه **النيووية/الفرضية** لم تتم البرهنة عليها، حسب (كولاكوفسكي)، ذلك لأنه يلاحظ " أن الحصة النسبية للطبقة العاملة، بالقياس الى مجموع السكان، تمتاز بنزوع متناقص، في حين يلاحظ أن حصة السكان المؤلفين من الشغيلة المحسوبين من طرف ماركس الى القطاعات غير الإنتاجية (الخدمات، التجارة، التربية، الإدارة) قد تنامت بشكل ملحوظ " <sup>45</sup>. الخطأ الثالث لروزا لوكسمبورغ، حسب كولاكوفسكي، يقوم على القبول بفكرة الإملاق المطلق للطبقة العاملة. وإضافة لذلك فإنها ترفض الفكرة القائلة بإمكانية تدخل الدولة في عمليات التراكم. منعاً لأي التباس، لابد من التأكيد على أن اتهامات (كولاكوفسكي)، التي عُرِضت هنا بتكثيف، ليست جميعها مبررة. غير أن السجال مع هذه الاتهامات يتطلب إعادة طرح العديد من التحديدات السابقة ( أنظر: نظرية الإمبريالية) وسيتطلب ذلك حيزاً كبيراً ليس ممكناً هنا، لذلك سنتخلى عن ذلك. ومقابل ذلك سنشير هنا الى ملاحظات واحد من أكثر الباحثين دراية بفكر روزا لوكسمبورغ وهو (جيفولسكي) الذي دافع عن الفكرة الرئيسية لـ "تراكم رأس المال".

أكد (جيفولسكي) على أن قيمة عمل روزا لوكسمبورغ تقوم على ما يلي: " (1) التعرف على الإمكانية والحاجة الى إكمال نظرية إعادة الإنتاج الموسع الماركسية (2) طرح هذه القضية والتفكير بها، بغض النظر عن إشكالية الأزمات الدورية للرأسمالية (3) البناء الطليعي للنموذج الخاص بإدخال قضية الطلب الفعال الى النظرية العامة لإعادة الإنتاج الرأسمالي الموسع (4) الإشارة الى الميل أو النزوع الكامن في الرأسمالية الى الركود وكذلك الاعتماد على الأسواق الخارجية كعنصر مقرر على المدى البعيد، كعامل مقرر ومحفز للنمو (5) تبيان الدور المهم للوسط غير الرأسمالي في تطور الرأسمالية، وكذلك التفسير الصحيح لهذا الدور (6) توضيح الدور الإقتصادي الجديد للدولة البرجوازية وكشفها عن العسكرة كشكل جديد لحل الصعوبات التي تواجه عملية إعادة الإنتاج الموسع من طرف الرأسمالية. ولا يمكن الشك في أن تلك الأطروحات كانت صائبة <sup>46</sup>. إن الملاحظات السابقة والتي يتضمنها فيها الكاتب مع روزا لوكسمبورغ إنما تدحض بوضوح الأطروحات التي صاغها (كولاكوفسكي). لهذا فإن (جيفولسكي) على حق حين يؤكد على أن اعتبار "تراكم رأس المال" عملاً خاطئاً " كان، من وجهة النظر العملية، بمثابة سوء فهم مكلف " <sup>47</sup>.

### بعض الاستنتاجات والملاحظات الختامية

لاشك أنه يتوجب تقييم كل عمل علمي إستناداً على وإطلاقاً من خلفية الظروف التاريخية الملموسة التي كُتِبَ فيها. ويتعلق الأمر على وجه الخصوص بأعمال من حقل العلوم الاجتماعية/التاريخية. من المفيد الإشارة هنا الى أن النقاش الماركسي داخل أوساط الإشتراكيين الديمقراطيين الألمان آنذاك كان نقاشاً سياسياً/اقتصادياً مقترناً بالتطور الهائل للقوى المنتجة في هذا البلد، في حينه، متمثلاً بتطور الكارتلات والتروستات، الأمر الذي طرح على جدول الأعمال إشكالية التركيز والتمركز وأثرها في تطور نمط الإنتاج الرأسمالي. وإرتباطاً بذلك طرحت على جدول الأعمال مسألة معرفة ما إذا كانت الكارتلات تزيد من حدة ظاهرة الأزمات أم تخفّضها. ولم تكن هذه الإشكالية نظرية صرفة فقط، بل إن معرفة الإجابة الصحيحة على أسئلتها الملموسة كانت ستسمح بتحديد نوع الإستراتيجية السياسية الملائمة لتلك المرحلة. وعلى خلفية الإجابة على هذه الإشكالية دار الصراع ساخناً في أوساط الإشتراكية الديمقراطية الألمانية. فمن ناحية إتجه الخط النظري لبرنشتاين نحو طريق البرلمانية والتحالف مع البرجوازية بهدف فتح الطريق السلمي نحو الإشتراكية، في حين دافعت روزا لوكسمبورغ عن الأساس البروليتاري للطريق الثوري. ومن جهة أخرى فإن أهم أعمالها: "تراكم رأس المال" كُتِبَ في تلك اللحظة التاريخية التي

<sup>45</sup> المصدر السابق، ص 80.

<sup>46</sup> ي. جيفولسكي، حول المضمون الفعلي والقيمة العلمية لـ "تراكم رأس المال" لروزا لوكسمبورغ، " الإقتصادي " 1970، العدد 1، مصدر

سابق، ص 106 - 108.

<sup>47</sup> المصدر السابق، ص 108.

أنهت فيها أوروبا وأمريكا الشمالية تطوراً رأساليا سلمياً طويلاً المدى نسبياً. فقد انتهى ذلك التطور وحلت نُذُرُ عاصفة حرب عالمية ضروس. وبالنسبة لروزا لوكسمبورغ، كماركسية ثورية، ألقها الركود الذي كان سائداً في أكبر الأحزاب الاشتراكية في الغرب، ومناخ اللعب البرلمانية و "مناورات وراء الكواليس". هكذا إذن بدأت محاولاتها "تحريك المياه الراكدة"، بالدعوة الى النضالات الجماهيرية للطبقة العاملة. فقد تبين أن استخدام أدوات الكفاح البرلمانية، والدعاية المضادة للحرب رغم اهميتها لم تعط نتائج كبيرة، أي أن إعداد الطبقة العاملة لفترة العاصفة التي ستحل لاحقاً لم يجلب النتائج المنتظرة. وعلى أية حال، أثرت الثورة الروسية الأولى (1905)، بفضل نشاط روزا لوكسمبورغ، على الجماهير العمالية في ألمانيا، غير أن قيادة SPD (وبقية الاشتراكية الديمقراطية) لم تستخلص الاستنتاجات المطلوبة، من هذا الحدث الهام. إن الترويج لتجارب الثورة الروسية الأولى التي خصصت لها لوكسمبورغ حيزاً معتبراً من الوقت والقوى، في سنوات ما بعد انهيار هذه الثورة، جويته بصمت مريب وعدم رضى. وبعد موت كل من: (كارل لينكخت)، (بيبل)، (سنجر)، اعتبرت قيادة SPD روزا لوكسمبورغ بمثابة شخص خطير و " عميلة " للثورة الروسية وحاملة لتكتيك خطير في عواقبه... الخ من النوع الكثير. وبمرور الوقت، بدأت روزا لوكسمبورغ تخسر المنابر واحداً بعد الآخر. فعلى سبيل المثال فإن هيئة تحرير *Neue Ziet*، المجلة النظرية لـ SPD، والتي اعتبرها عديدون قيمة بالنسبة لهم، أغلقت أبوابها بوجه روزا عندما راودتها الرغبة في أن تكون عضواً في مجلس تحريرها. كما وضعت العديد من الصحف التابعة للاشتراكية الديمقراطية الألمانية العديد من العراقيل والصعوبات أمام روزا لوكسمبورغ عندما كانت تريد التعبير عن وجهات نظرها بصدد قضايا النضال المثارة آنذاك. وإضافة لذلك فقد انتعشت داخل الحزب وفي مؤتمراته موجات نقد وتعنيف حادة ضد روزا، وانظمت الى ذلك ماكنة الدولة الألمانية الرهيبة وجهازها الذي حكم عليها بالسجن لقاء خطاباتها التي كانت تلقاها. في مثل هذه الأوضاع بدأت روزا لوكسمبورغ كتابة أهم عمل نظري بالنسبة لها. وبالنسبة لمناضلة من طرازها لم تكن هناك أية حواجز بين النشاط السياسي الثوري والنشاط النظري.

ولابد من التذكير بأن هدف "تراكم رأس المال" لم يكن محصوراً بتقديم تفسير نظري لأسباب ضرورة فترة جديدة للحروب والثورات فحسب، بل كان يهدف كذلك، وهو الأهم، إلى إعداد البروليتاريا لهذه المرحلة الجديدة. كان "التركام" يدعو، إذن، الى التحصن أمام إمكانية "خيانة الجناح الانتهازي للاشتراكية الديمقراطية"، وكانت روزا تهدف الى كشف الظروف الملائمة موضوعياً للانتصار النضال الثوري. لقد توصلت لوكسمبورغ الى نتيجة مفادها أن تطور الرأسمالية سيقود حتماً الى احتدام مختلف التناقضات الداخلية والخارجية، وبالتالي إمكانية تبلور خيارين كبيرين هما: أما الانعطاف الاشتراكي إذا صار العامل الذاتي جاهزاً وناضجاً للاستيلاء على السلطة، أو انبثاق ديكتاتورية رجعية متطرفة، إذا ظهر أن البروليتاريا غير قادرة على الانتصار.

وقد كانت إحدى الأطروحات المركزية لعمل روزا لوكسمبورغ تتمثل بفكرة قوامها أنه ليس هناك من انعطاف نحو الرأسمالية السلمية وهدوء طويل المدى، في ظل الإمبريالية. وتم صياغة هذه الفكرة على خلفية تأملاتها لـ "الحدود الاقتصادية للرأسمالية". وقد قاد هذا السقف الى كبح النمو الإقتصادي، أي الى الركود الإقتصادي، الذي لا يتيح النهوض الطبقي واشتغال النسق الرأسمالي. ومن وجهة النظر هذه، فإن عمل روزا لوكسمبورغ يمثل تواصلاً (استكمالاً) لأبحاث ماركس، الذي اكتشف وعلل ليس فقط قوانين انبثاق وتطور الرأسمالية، ولكن كذلك قوانين انهيارها.

ولم تكن نظرية انهيار الرأسمالية، حسب تصور روزا لوكسمبورغ، سجلاً مع أي من الجناح اليميني في الحركة العمالية المنظمة، بل كانت موجهة ضد أولئك الذين أعلنوا خلود الرأسمالية وقدرتها القاهرة على الاستمرار. وهكذا قرأ عملها كل من (برنشتاين)، و (كاوتسكي)، و (هلفردنغ)، و (باور)، ولذلك أثارت اعتراضاتهم الكثيرة. ومن المحتمل أن أي عمل نظري اشتراكي ديمقراطي، آنذاك، لم يكن موضوعاً لانتقادات وهجمات كهذه.

ولاشك أن واحدة من الخصائص الأساسية لمختلف الأعمال النظرية لروزا لوكسمبورغ، بدون استثناء، كانت، كما نعلم، تتمثل بتأكيدا الدائم على الدور الفعال والنشيط لنضال الطبقة العاملة، أي دور العامل الذاتي. وكانت كل أبحاثها تهدف لتحفيز الوعي الطبقي البروليتاريا، وكانت ترى في قضية تنمية وعي هذه الطبقة، الضمانة الرئيسية للانتصار النهائي للبروليتاريا.

وبغض النظر عن تعدد الأسباب، فإنه خلال تلك السنوات لم يكن هناك أي "ماركسي" يعارض "الانهيار الحتمي للرأسمالية"، بل وحدهم "التحريفيون" فقط الذين هاجموا هذه "الدوغما" الماركسية. وفي مثل هذا الوضع فإن نشر "تراكم رأس المال" كان ذا أهمية كبيرة. إذ برهنت الكاتبة، في هذا العمل، على أنه ستحل فترة الأزمات العميقة، والحروب، والثورة، الأمر الذي كان يعني ضرورة تحضير البروليتاريا لمواجهة كل ذلك. وإستنادا لهذا التشخيص، وعبره، برهنت روزا على ضرورة استخدام تكتيك آخر، وليس فقط "تكتيك البرلمانية". ومن الطبيعي الإشارة الى أنه لا روزا لوكسمبورغ ولا أي منظر ماركسي آخر كان بقادر على التنبؤ بالتطور اللاحق للأحداث، وخصوصاً في تفاصيلها.

لقد تنبأ العديد من المنظرين الماركسيين، آنذاك، وبصواب بأن الإمبريالية ستقود حتماً الى كارثة مروعة تتخذ شكل حرب عالمية ولاحقاً الى حروب تالية، أكثر بربرية وتدميرية. وكان هؤلاء يعتقدون بأن الحرب ستؤدي الى احتدام تناقضات الرأسمالية، وإنها ستعجل، بهذه الدرجة أم تلك، بطول الثورة الإشتراكية، ولهذا فإنهم سعوا لتعبئة البروليتاريا وتحضيرها لخوض "حرب مضادة للحرب". وقد تحققت تنبؤات روزا لوكسمبورغ وبقية المنظرين الماركسيين الثوريين. يكفي أن نذكر هنا مجرى الحرب العالمية الأولى ونتائجها، حيث لاحظنا أن "فترة الكوارث" التي تحدثت عنها مؤلفة "التراكم" قد حلت حقاً. وعلى الرغم من أنها لم تتوقع انتصار الثورة الإشتراكية في بلد واحد، إلا أن انتصار ثورة أكتوبر لم يفاجئها.

يتيح العرض المكثف السابق القول بأنه يمكن العثور على علاقة وثيقة بين النشاط السياسي لروزا لوكسمبورغ وبين أعمالها النظرية. لقد كان النشاط الثوري يحدد اتجاه أعمالها النظرية، وإن مقارباتها النظرية قد علّنت الموقف، الذي اتخذته في المعارك السياسية الحاسمة. وهكذا فإنه ليس عرضياً أن نرى مؤلفة "التراكم"، وفي أشد اللحظات توتراً وحسماً (اندلاع الحرب، اندلاع ثورة أكتوبر) وقد وجدت نفسها في نفس الموقع الذي وُجد عليه كل اليسار الثوري آنذاك. وهكذا فإن "التراكم"، وبالرغم من كل أخطائه والموضوعات المثيرة للالتباس التي احتواها، كان عملاً ثورياً، سواء موضوعياً أم ذاتياً. وحتى سجالها مع (ماركس) ومع البلاشفة الروس كان سجلاً بين رفاق في نفس الخندق، من نفس صفوف الطليعة الثورية. وفي كل أعمالها، وخصوصاً في "التراكم"، كانت روزا تتصرف كماركسية ثورية. ولهذا السبب فإن (لينين)، وكما رأينا في حينه، لم يتفق مع "التراكم"، ولكنه وجد من المفيد ترجمته الى كل لغات العالم، ودعى الى نشر كل أعمالها. وهكذا اعتبر لينين أن بلاتفورم (برنامج) سبارتاكوس<sup>48</sup>، المكتوب بيد روزا لوكسمبورغ، يمكن أن يكون سوية مع موضوعاته أساساً إيديولوجياً للأمية الشيوعية.

وكما نعلم، فإن واحدة من الأفكار الرئيسية لـ "التراكم" هي موضوع ما يسمى بـ "الرأسمالية الصافية" كنظام اقتصادي عالمي وحيد لا يمكن أن يوجد وأن يشتغل بصورة طبيعية. هذا إضافة الى ضرورة وجود وسط غير رأسمالي واسع كمصدر مهم جداً للخامات، وللعمالة الرخيصة، وكمكان (حيز) لتوطين رؤوس الأموال وأسواق التصريف. كما أن الرأسمالية لا تعيش فقط اعتماداً على استغلالها لطبقتها العاملة، ولكنها - وهي تستغل تفوقها السياسي والاقتصادي - تدمر إقتصاد بلدان "العالم الثالث".

<sup>48</sup> في برنامج سبارتاكوس، الخطبة التي ألقها روزا لوكسمبورغ في 30 ديسمبر 1918 في المؤتمر التأسيسي للحزب الشيوعي الألماني. منشور على موقع الحوار المتعدن على الانترنت - العدد: 1175 - 2005/4/22

لقد رأت روزا لوكسمبورغ ثلاث مراحل في عملية تطور البلدان المتخلفة اقتصادياً، التي تدخل في علاقة مع البلدان ريفية التطور:

- المرحلة الأولى، وتتمثل بتحطيم الإقتصاد الطبيعي في تلك القطاعات التي يوجد فيها، وهذه المرحلة تنتهي الى التطور الذي سماه ماركس بمرحلة التراكم البدائي لرأس المال.

- المرحلة الثانية، وتعتمد على إدخال الإنتاج السلعي البسيط مع قوانينه الإقتصادية : المنافسة، صراع الجميع ضد الجميع، دمار البعض وثوراء البعض الأخر. تقوم الرأسمالية المتسلحة بأحدث التكنيك والتي تمتلك تفوقاً اقتصادياً على أنماط الإنتاج السلعي البسيط، بتدمير هذه الأنماط بكل ما يحمله ذلك من معاناة لملايين البشر.

- المرحلة الثالثة، وتتمثل بسيطرة تامة للرأسمالية.

أكد بعض نقاد روزا لوكسمبورغ على أن الكولونيالية توجد منذ نشوء الرأسمالية، وطبقاً لذلك فإن الإمبريالية، بحسب تناول روزا لوكسمبورغ، ليس شيئاً جديداً، ليست مرحلة مستقلة بحد ذاتها من مراحل الرأسمالية. طبعاً يمكن للمرء أن يلاحظ أنه يتم التركيز بشكل مبالغ فيه، في نموذج روزا لوكسمبورغ، على الوتيرة العالية للتحويلات الرأسمالية في بلدان "العالم الثالث". ورغم مرور عشرات السنين على صدور "تراكم رأس المال" لا نلاحظ "رسمة" ملحوظة وناجزة للجزء الأعظم من المستعمرات القديمة والبلدان التابعة. غير أن جوهر القضية يقوم على أن معظم هذه البلدان لا تمتلك عموماً أي إمكانية للتطور الرأسمالي الناضج فطالما بقي هذا "التطور" حبيس قماط الآليات التي تفرضها القوى المتنفذة في المراكز الإمبريالية.

تشمل عملية التراكم الرأسمالية الناضجة، كما تشمل كذلك البلدان المتأخرة في النمو. ولكن الكثير من نقاد نظرية روزا لوكسمبورغ ركزوا سهام نقدهم عليها لتناولها للرأسمالية ريفية التطور. وكان ذلك أمراً خاطئاً وأحادي الجانب، حيث الإمبريالية تتطلب تصدير رأس المال كشرط لوجودها أو لظهورها، وتتطلب كذلك مناطق ثرية بالخامات الضرورية لإبقاء الجهاز الإنتاجي في حركة دائبة. تمثل البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة جزأين مترابطين لذات الواقع الإمبريالي، فهما يؤلفان النسق الرأسمالي للإقتصاد العالمي. ولهذا فإن نظرية الإمبريالية لا يمكن أن تنحصر في بحث السيرورات الإقتصادية الحادثة (الناشئة) في العالم المتطور. إن الأخذ بنظر الاعتبار البلدان الضعيفة التطور، وعند بحث الإمبريالية، يتمتع بأهمية استثنائية، وهو ما يمثل مساهمة ثمينة لروزا لوكسمبورغ. إن أهمية عملها تكمن في أنها أول من أدرج هذه البلدان في التحليل النظري للرأسمالية.

والخلاصة التي يمكن التوصل إليها من خلال الملاحظات السابقة هي أنه بالرغم من العديد من التعميمات المثيرة للجدل التي صاغتتها روزا لوكسمبورغ في العديد من أعمالها، وعلى وجه الخصوص في عملها النظري الأهم "تراكم رأس المال"، إلا أن هذا العمل، وخصوصاً القسم التاريخي منه، يرسم لوحة دقيقة وواضحة لتطور النظام الرأسمالي في البلدان الأوربية المتقدمة، ويُعد بدون مبالغة واحداً من أهم ما كتب في التاريخ الإقتصادي المعاصر. وفي دراسة هامة للمفكر الإقتصادي العراقي المعروف الراحل الأستاذ إبراهيم كبة، أعتبر الجزء التاريخي من هذا العمل إضافة قيمة للأجزاء التاريخية من عمل ماركس الأهم (الرأسمال)<sup>49</sup>. كما أن الاستنتاجات (السياسية) التي خرجت بها المؤلفة من تحليلها للرأسمالية كانت استنتاجات بالغة الثورية : ثورة الطبقة العاملة الدولية ضد النظام الرأسمالي، الذي لا

<sup>49</sup> قارن : إبراهيم كبة، هنري دني وموضوعة عدم إكمال "رأسمال" ماركس. هل التجارة الخارجية شرط مسبق للتراكم الرأسمالي. مجلة "الإقتصادي"، مصدر سابق.

يتطور إلا عبر أزماته الدورية أولاً، والكوارث والانقلابات السياسية والعسكرية التي ستعجل بسقوطه ثانياً، قبل حلول أجل (الانهيار الذاتي) بحكم تناقضاته الداخلية. ومن المعروف أن تلك الاستنتاجات الثورية الشجاعة كلفتها حياتها الغالية على يد الطغمة العسكرية الألمانية الحاكمة آنذاك. ولهذا السبب بالذات كان رد الفعل الرسمي من داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني على كتابها "تراكم" معادياً جداً، ليس بسبب الطابع النظري له، بل لاستنتاجاتها الثورية التي كانت تتعارض مع "الخط الإصلاحي الانتهازي" للحزب حينذاك. ومع ذلك وبالرغم من مفهومها الآلي لمصير النظام الرأسمالي، فإن هذه السمة، كما يؤكد (سويزي)<sup>50</sup>، ثانوية في عملها، لأن مفهومها للمادية التاريخية، بصورة عامة، كان مفهوماً علمياً وثورياً، وهي أكثر ماركسية حتماً من جميع نقادها "الإصلاحيين" و "الوسطيين".

كما إن قيمة الأعمال الإقتصادية لروزا لوكسمبورغ، وفي مقدمتها عملها الأهم "تراكم رأس المال" تقوم، على ما أعتقد، على حقيقة أنها تتضمن العديد من الأفكار الخصبية والمقاربات الجديدة لظواهر هامة بدأت تتبلور في الرأسمالية الصاعدة آنذاك. و تتجلى قيمة "تراكم رأس المال" أيضاً في حقيقة أن هذا الكتاب تضمن العديد من الملاحظات القيّمة حول التاريخ وسنن تطور الرأسمالية، وهذا بلا شك أمر هام.

والنتيجة أن روزا لوكسمبورغ أدخلت الوسط غير الرأسمالي الى تحليل عملية تطور الرأسمالية. وكان ذلك يمثل خطوة هامة باتجاه ملموسية تجسيد **Concretization** نظرية ماركس. وبغض النظر عما إذا كانت محاولتها هذه قد نجحت أم لا، فإنها دفعت بفكر ماركس نحو الجديد، نحو قضايا لم تكن مبحوثة من قبل. وهذا هو ما يمثل جوهر وأهمية مساهمتها النظرية، وما تضمنته تحاليلها وصياغاتها النظرية في عملها الأهم "تراكم رأس المال".

ويمكن القول إن البناء النظري الذي صاغته روزا لوكسمبورغ، في عملها الإقتصادي الأهم هذا، كان يحمل بذاته الطريق لتعميق نظرية الإمبريالية، بغض النظر عما تضمنه العمل للعديد من الإشكاليات المثيرة للنقد والجدل والاختلاف. إذ هنا تكمن قيمة الأعمال النظرية الأصيلة التي تقتحم الواقع وتعيد بنائه نظرياً. ففي مجرى هذه العملية المعرفية المعقدة تتم البرهنة على العديد من الفرضيات المنطقية، ولكن بمقابل ذلك تنطرح أسئلة جديدة "تستفز" الباحثين الآخرين للخوض في معركة جديدة للإجابة على هذه الأسئلة. وفضيلة عمل روزا لوكسمبورغ الأهم: "تراكم رأس المال" تكمن في أنه أثار زوبعة من النقاشات والأسئلة لم يهدأ أوارها لحد اللحظة، في مختلف بقاع العالم، باستثناء المنطقة العربية العسوية التي تعودت على النقل وليس أعمال العقل وطرق أفق جديدة للبحث. واطروحات روزا لوكسمبورغ ومقارباتها النظرية العديدة، التي صاغتها في العديد من أعمالها، لم تعد ملكاً لتاريخ سابق فقط، بل إنها تتمتع بملموسية وراهنية بسبب ما يطرحه تطور الرأسمالية، كتشكيلة عالمية البعد، من تناقضات جديدة، ومظاهر وتجليات جديدة، وفي مقدمها ظاهرة العولمة وتجلياتها الرأسمالية الملموسة، مما يستحث الحاجة الى مقاربات جديدة تستند الى أرضية نظرية صلبة. ويمكن لعمل روزا لوكسمبورغ هذا أن يوفر أساساً لذلك، إذا تمت قراءته قراءة علمية بعيداً عن أي شحنة أيديولوجية مسبقة (طبعاً بالمعنى السلبي للإيديولوجيا).

ومن المفيد التأكيد منعا لأي التباس على أن التحليل الذي قامت به روزا لوكسمبورغ والنتائج التي توصلت إليها في هذا المجال ينبغي النظر إليها ضمن السياق التاريخي الذي أنجزت فيه، والمرحلة التي بلغت الرأسمالية محلياً ودولياً، آنذاك. وبغض النظر عن بعض الأخطاء النظرية والاستنتاجات العمومية، إلا أن العمل الذي أنجزته لوكسمبورغ يعد مساهمة نظرية وسياسية مهمة أغنت الفكر الماركسي وأضافت إليه عناصر جديدة، وطرحت تحاليلها ونتائج أبحاثها أسئلة جديدة وإشكاليات جديدة، فتحت الباب أمام معارك نظرية وسجلات ساخنة. وهذه هي قيمة العمل العلمي الرصين الذي لا يتحدد هدفه

<sup>50</sup> قارن : بول سويزي، نظرية التطور الرأسمالي، ص 207، وقد وردت الإشارة إليه في مقال الأستاذ إبراهيم كبة أعلاه.

بالإجابة على أسئلة سابقة، بل وبطرح أسئلة جديدة تشكل منطلقاً للبحث اللاحق. وعمل روزا لوكسمبورغ يدخل ضمن هذا الإطار بالفعل.

لقد كانت **المحاضرات** التي أحاطت بالفكر النظري لروزا لوكسمبورغ **عقائدية**، في العديد منها، أكثر مما هي نظرية أو منهجية، وذلك لأسباب عديدة لا يتسع المجال لذكرها هنا، رغم الإشارة إلى البعض منها في أماكن مختلفة من هذه الدراسة. الآن، وبعد هذه الفسحة الزمنية الطويلة التي **انقضت** منذ صدور أعمال " **نسر الثورة** "، يبدو أن هناك حاجة ملحة لأن **ينفتح الأفق لقراءة هادئة** لنصوصها العديدة وخصوصاً الاقتصادية منها، والتي ظل الصخب يدور حولها لوقت طويل.

ويمكن القول أن أعمال **روزا لوكسمبورغ** كانت **نتاجاً** لأسئلة تحتمت الإجابة عليها في ذلك العصر الذي عاشته هذه الثورة والمفكرة. ولهذا **يتعين على الماركسيين** قراءتها في الظروف المعاصرة من دون **التعزز** على أحكام **سابقة** كانت **نتاج** ظروفها التاريخية الملموسة، ونتاج الصراعات الكبرى حول أفق الثورة والاشتراكية، في ذلك الزمان الملى بالعواصف السياسية وتقلبات السياسة وألوان طيفها المتبدلة كل يوم، قراءة **تتيح** إعادة الإعتبار لروزا لوكسمبورغ ووضعها في مكانها الطبيعي في التاريخ، **كمفكرة** **ماركسية كبيرة** و**مناضلة ثورية** **باسلة** إستشهدت من أجل مبادئها التي لم تتخل عنها لحظة واحدة. وبرغم العديد من الملاحظات النقدية حول ما طرحته في أعمالها، فإنها **جديرة** اليوم بالترسيم ، رغم مرور **148** عاماً على ولادتها و **100** عاماً على إستشهادها البطولي والمأساوي في آن.